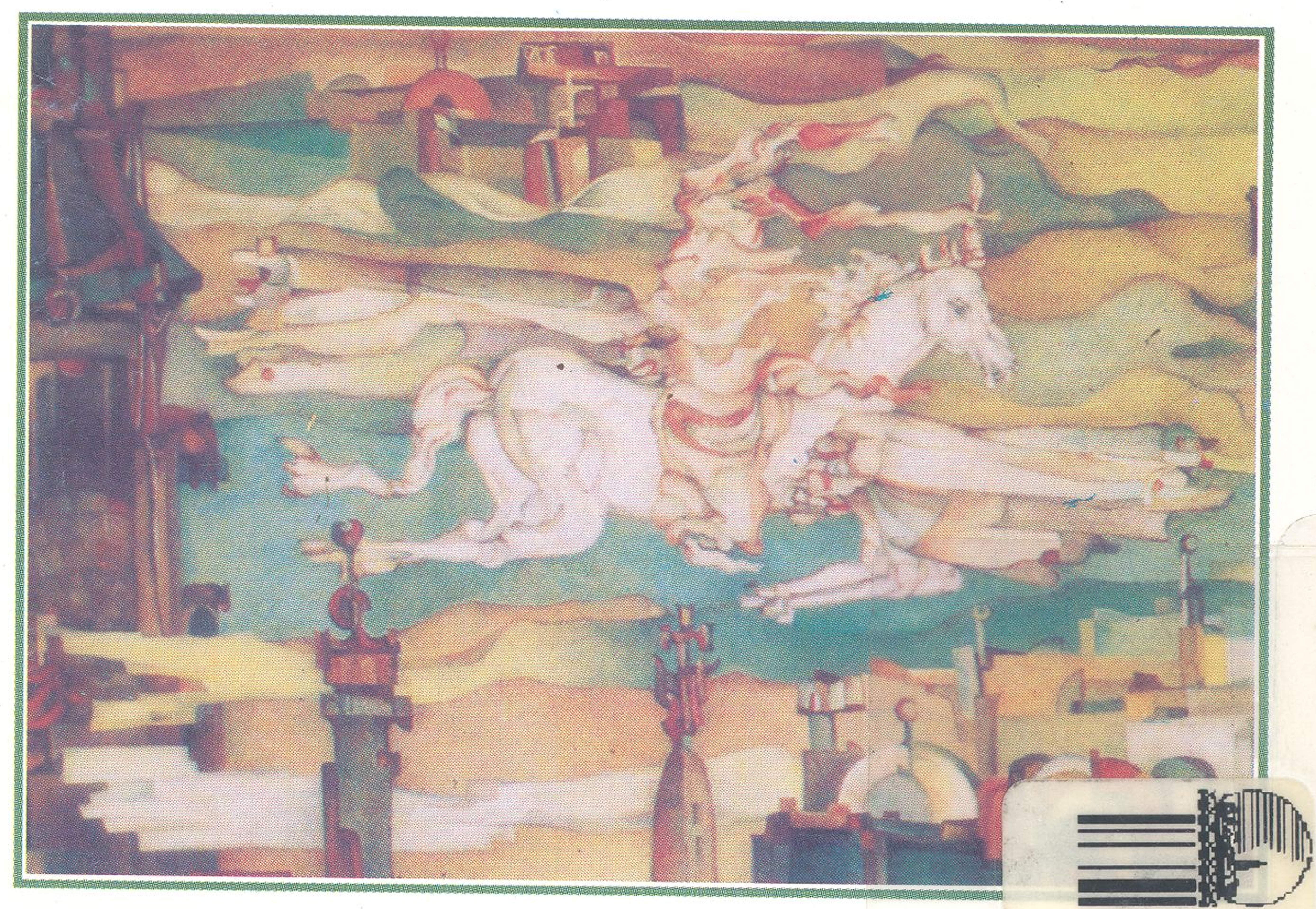
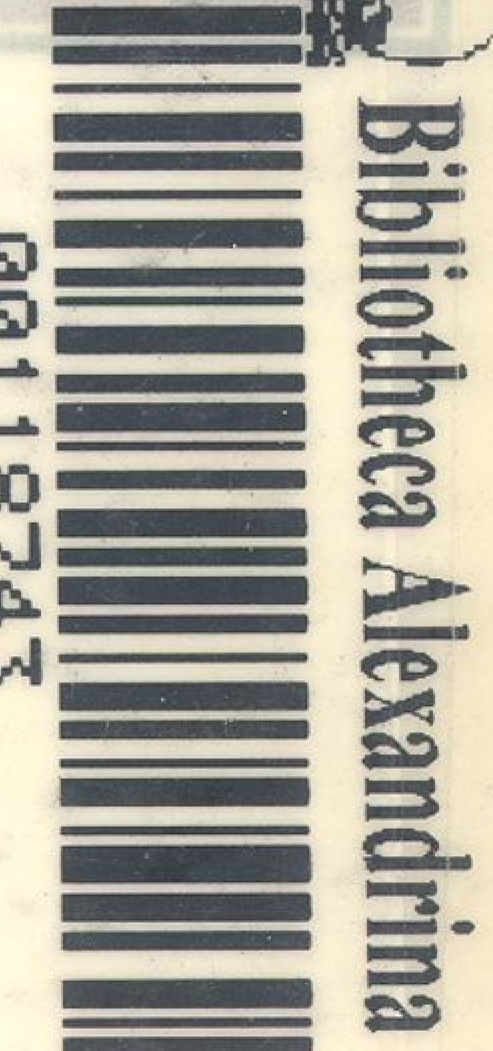
فيصل سليم التلاوي

يوميات عابر سبيل



قصص قصيرة





يوميات عابر سبيل

قصص قصيرة

فيصل سليم التلاوى

لوحة الغلاف مهداه من الفنان الكبير :عبدالرحمن النشار

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع : ٧٢٣٩ / ٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N. 977-291-150-7



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام

على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ : شريف على

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

فيصل سليم التلاوي

يوميات عابر سبيل

قصص قصيرة



قطار الزمن

كعادته في يوم عطلته الأسبوعية ، ينهض الأستاذ حمدان من نومه مبكراً كأنه في يوم عمل . إن ساعته البيولوجية لاتضيف له فى أحسن الأحوال إلا مقدار ساعة واحدة ، فإذا كان يستيقظ يوميًا فى الساعة السادسة صباحًا فإنه قد يتراخي في يوم عطلته ويتمدد في فراشه وهو نصف نائم ساعة إضافية ، ثم يتسلل على رؤوس أصابعه مغادراً المنزل تاركًا الجميع يغطون في نوم عميق .

يتسكع في الشوارع التى خلت من المارة ومن السيارات إلا ماندر ، يطالع واجهات المحلات التى أغلقت أبوابها بعد أن سهرتِ إلى ساعة متأخرة من الليل . إن المدينة كلها هامدة ساكنة هذا الصباح ، فى نهارها هدوء الليل ، بعد أن كان فى ليلها الفائت صخب النهار ، هذه عادتها فى أيام العطل والأعياد وشهر رمضان وسائر المواسم ينقلب ليلها نهاراً ، ونهارها ليلاً .

إن الأستاذ حمدان بخبرته الطويلة صاحب الدكان الوحيد فى نهاية الشارع الذى يفتح دكانه مبكراً فى مثل هذا الوقت ، إنه يمضى نحوه بحكم العادة بحركة لا إرادية ، يشترى عدد الجمعة من جريدة "الشرق الأوسط" ثم يجلس على مقعد خشبى يتفيأ ظل شجرة فى حديقة عامة صغيرة مقابلة للدكان، يقلّب الصفحات سريعًا باحثًا عن المقال الأسبوعى لكاتبه الكبير الأثير الأستاذ "إميل حبيبى" .

بعد أن يفرغ منه يعود للجريدة من بدايتها ، إن لديه متسعًا من الوقت ساعتين أو ثلاث يمضيها فى تصفح الجريدة فلا يترك شاردة ولا واردة ، إنه

مضطر لذلك ، عودته للمنزل يجب أن تترافق مع موعد نهوض زوجته وأولاده من نومهم ولا ضرورة لإزعاجهم وإيقاظهم قبل الموعد المألوف وافتتاح نهار العطلة بالنكد من أوله .وحتى لو نهضوا فما الذى سيفعلونه بين جدران هذه الشقة .سيعاودون تسمّرهم أمام التلفاز ، ويتصارخون ، أريد هذه القناة ، وأريد تلك . عجيبون أبناء هذا الجيل من الفتيان والفتيات والنساء ، أى صبر وجلد لديهم على الثبات فى جلستهم الساعات الطوال أمام أجهزة التلفاز !

ينام الأستاذ حمدان مبكرًا حتى فى أيام العطلة ويستيقظ مبكّرًا ، بينما يسهر أهل بيته إلى قبيل الفجر . عندما ينهض من نومه يكون بعضهم فى بداية نومه وبعضهم لم ينم بعد ، إن كانت المناسبة إجازة طويلة كعطلة الصيف أو رمضان . إنه يحس بانفصام تام بينه وبين أهل بيته ، إن نهاره ليلهم وليلهم نهاره . عشرون عامًا انقضت على زواجه وصل أكبر أبنائه إلى الجامعة وهذه الهوة التى تفصل بينه وبين أهل بيته فى مواعيد النوم واليقظة، وفى تبادل الليل والنهار ، لا تضيق بل تتسع عطلة بعد عطلة وعامًا بعد عام .

إنه يألف كثيرًا أيام العمل ، بل يحبها ويُقبل عليها بشغف لأنها توحد أهل البيت رغمًا عنهم . لابد من النهوض الجماعى صباحًا ليذهب الأولاد إلى مدارسهم ، ثم عودة بعد الظهيرة من يوم عمل شاق ، تتبعها قيلولة تريح الجسد من عناء طويل ، بينما ينصرف الأولاد لدروسهم ومذاكرتهم التي ترهقهم فينامون مبكرين وقد أعياهم اليوم الدراسى والإعداد لليوم التالي . يتوحد جو هذا البيت ومزاج أهله فى أيام الدوام . ليت الأيام كلها دوام منتظم لا عطلة فيه . هكذا تمنى الأستاذ حمدان وهو يواصل تصفح جريدته .

رفع رأسه عن الجريدة لحظة ليريح عينيه ، ويسرح بصره فيما حوله ، وقع نظره على صندوق هاتف عمومي ثبت على عمود أمامه ، خُيل إليه أنه يراه للمرة الأولى مع أنه يدمن الجلوس على هذا المقعد في صبيحة كل يوم عطلة منذ أمد بعيد . كيف لم يشاهد هذا الهاتف قبل اليوم ؟ ولم يستخدمه ولو مرة واحدة ؟ إن هيئته لا توحي بأنه جديد ، بل هو قديم ، قديم جداً في مكانه ربما قبل جلسته الأولى في هذا المكان .

وما الذي يهمه من أمر الهاتف هذا اليوم ؟ ولماذا يدقق فيه كل هذا التدقيق ؟ ما الذي يدور برأسه ؟ مع من سيتحدث هاتفيًا في هذا الصباح وهو يعلم أن الناس نيام ، ثم إنه لا يحمل مفكرته التي تحوي أرقام الهواتف وهو لم يعتد على حفظ الأرقام ، لم تسعفه ذاكرته بتجميع أي رقم من أرقام معارفه في المدينة . لكن رقمًا هاتفيًا وحيداً ارتسم أمام عينيه ، قفز من أعماق الذاكرة ، من بئر عميقة بعيدة الغور تعود إلى أكثر من عشرين عامًا . إنه لم ينس هذا الرقم لحظة واحدة لكنه كان يتناساه دائمًا ، يصرف ذهنه عنه كلما وجد لسانه يتمتم به دون وعي . إنه ليس في مدينته ، إنه بعيد في العاصمة ، حيث أمضى سنوات دراسته الجامعية ولم يعد إليها بعد ذلك إلا نادراً إذا أرغمته الظروف ، وإنه ليجهد نفسه إن اضطر للذهاب إلى العاصمة في أن يختصر وقت إقامته فيها إلى أدنى حد ممكن ، ينجز عمله متسللاً متلفتًا ذات اليمين وذات الشمال ثم يعود سريعًا إلى بلدته كأنه يخشى أن يضبطه أحد .

لابد أنه فعل شيئًا لا يزال يؤرقه ، وضميره يؤنبه عليه كل هذه السنين ، ويجعله يحدث نفسه :

– هون عليك يا أستاذ حمدان ، حتى الجرائم تسقط عن أصحابها بعد عشرين سنة .

- الجرائم ضد الغير تسقط بمضى الزمن وتقادم العهد وتلغى عقوبتها ، أما الجريمة ضد النفس فإنها لا تسقط ، إنها تتضاعف مع مضى الزمن لأن عقوبتها ذاتية يدفعها مرتكبها من ذاته ونفسه ومشاعره وتتحول إلى لعنة أبدية تطارده .

نهض الأستاذ حمدان من مكانه وتقدم بخطوات مترددة صوب الهاتف العمومى يغريه الهدوء والسكينة وعدم وجود متزاحمين أو فضوليين أمام الهاتف ليسمعوا قوله أو يطالعوا هيئته وتغيُّر لونه على ضوء سير المحادثة .

ارتعشت يده وهو يرفع سماعة الهاتف ويقربها من أذنه ، يحاول أن يطلب الرقم الوحيد الساكن فى ذاكرته منذ نيف وعشرين عامًا ، لكن سبابته لا تطاوعه ، إنها ترتجف ، أصابعه كلها ترتعش . .تختلط الأرقام ببعضها ، يزوغ بصره ، يعيد السماعة إلى مكانها ويقف ثابتًا متسمراً إلى جانب الهاتف ، يحمد الله أن المكان خال من عملاء الهاتف ومن المارة وإلا لافتضح أمره وسخر الناس من هيئته المترددة وحسبوه خائفًا من صوت ينبعث له من سماعة الهاتف ، ولكن الله سلم وستر فليس فى الميدان سوى "حمدان" .

استجمع قواه مرة ثانية وسجل الرقم على ورقة أمامه هذه المرة حتى لا تخونه الذاكرة من فرط الارتباك والتردد مثلما حدث فى المرة السابقة .

رفع السماعة وضغط على الأرقام بثبات وتأن هذه المرة أكثر من سابقتها . فرغ من مهمته الشاقة التى يراها الناس تنقضى فى طرفة عين لكنها بالنسبة له تعادل مسيرة عشرين عامًا بالتمام والكمال .

إن هذه اللمسات التى لمسها على الهاتف ستعود به فعلاً عشرين عامًا إلى الوراء . لكن لماذا يفعلها ؟ لماذا هذه العودة ؟ إنه لا يدرى .

يسمع رنين الهاتف فى الجانب الآخر ، طال الرنين حتى حسب أن أحداً

لن يجيب ، ربما كانوا نيامًا مثل أهل بيته ، وربما كان لهم شخص مثله هارب من طول نومهم ملتجئ إلي ظل شجرة يطالع على كُره منه جريدة الصباح . وأخيراً انسابت في أذنه وفي قلبه وفي سائر عروق بدنه كلمتان رقيقتان انبعثتا من الطرف الآخر .

- ألو ، مين . .

لم يقو على الكلام ، لقد تيبست شفتاه وجف حلقه ، عبثًا يحاول التقاط أنفاسه أو يهدئ وجيب قلبه ، يبحث عن كلمة ينطق بها فلا يستطيع ، تمر بخياله حكايات من ارتج عليهم من مشاهير الرجال الذين ذكرهم الجاحظ ، لكنهم كانوا ينتزعون ولو كلمة واحدة ، حاول مثلهم وبعد جهد جهيد واستباقا لإقفال الهاتف من الطرف الآخر استجمع كل طاقته التعبيرية في كلمة واحدة .

- وردة .

- نعم أنا وردة . . من أنت ؟

لم يصدق أذنيه ، إنها هي ، نفس الصوت المألوف الذى ظل يرن فى أذنيه منذ عشرين عامًا ، لم يتغير شيء في نبراته ، نفس الرقة المألوفة التى تقطر نبراتها عذوبة ومودة . كيف ؟ ألم يؤثر الزمن في صوتها فيزيده خشونة أو مرارة ، نفس النبرات الحلوة التى نطقت بها عبارتها الأخيرة له قبل عشرين عامًا . سأنتظرك فلا تتأخر كثيراً ، وماذا تفعل في بيت أبيها ؟ هل لازالت تنتظر ؟

ألح الصوت ثانية :

- مين حضرتك؟ . . تكلم .

لم يجد ما ينطق به ، وخشي أن تسيء الظن به فتحسبه أحد هواة المعاكسة والغزل على الهاتف فتُسمعه كلمة جارحة . أعاد سماعة الهاتف

إلى مكانها ، وما عاد إلى مكانه ولا إلى جريدته . لقد يمم وجهه صوب موقف السيارات المتجهة نحو العاصمة واستقل أول سيارة مغادرة كأن قوة غامضة كانت تسوقه سوقًا ولا تتيح له فرصة التفكير والتروى فيما هو مُقدم عليه .

وصل العاصمة ، استقل سيارة أجرة لتوصله إلى طرف الحى الذى كان قبل عشرين عامًا مرتع صباه ومولد هواه الأول يوم كان طالبًا فى الجامعة ، يسكن هذا الحى ويزور بيت صديقه "حسن" الواقع فى هذا الحى الوادع الجميل ، حيث عرّفه على أهله الذين يكن لهم مودة ومحبة لا تقل عن محبته لأهله . ومن بينهم جميعًا ظفرت "وردة" بحبه الخالص حبه الأول الذى بدأ بنظرات الإعجاب المتبادلة ثم تطور إلى لقاءات خاطفة وأحاديث عابرة بحضرة أخيها حسن أحيانًا وبدونه أحيانًا أخرى ، فقد كانت طالبة تصغره بعامين . عندما أنهى سنته الرابعة وتخرج من الجامعة ووعدها أن يعود لخطبتها ، ووعدته أن تنتظره ، كانت قد أكملت عامها العشرين وسنتها الجامعية الثانية ، وهاهو يعود إليها بعد عشرين عامًا أخرى ، وقد خلّف وراءه جيشًا من البنين والبنات الذين أنجبهم من زواجه من ابنة عمه التى أرغمه أهله على الزواج منها ، والتى قالوا إنها معطاة له منذ الطفولة وأنها انتظرته كل هذا العمر ، فلا يليق به أن يبدل بها زوجة أخرى ، ولا أن يجرح شعور وكرامة عمه الذى أهداه ابنته منذ أن كانا طفلين رضيعين . كل محاولاته وتوسلاته لأمه وأبيه ذهبت أدراج الرياح ولم تجد نفعًا فى الخلاص من هذا الزواج ، أو حتى تأجيله . لقد خيّروه بين زواج يلم شمل العائلة ويقربها ، وبين نبذه والبراءة منه إن خرج عن طوعهم ومشورتهم .

سقط حمدان يومها فى الامتحان الصعب ، سقط فى سؤال الاختيار ، اختار الخطأ الشائع وجانب الصواب الذى يحتاج لإرادة وصمود عظيمين

للدفاع عنه . انحنى سريعًا للزوبعة ، لكنها ظلت انحناءة أبدية ما استقام ظهره بعدها أبداً .

إنه الآن يذرع الشارع الحبيب إلى قلبه ونفسه ، الشارع الذى ما ألف مكانًا فى الدنيا مثل إلفه له . إن سنواته الجامعية الأربع التى أمضاها فى هذا الشارع تعادل ما قبلها وما بعدها من سنوات عمره . فى هذا الشارع تفتحت عيناه على الحياة الحقيقية وامتلأت نفسه وعيًا وثقافة وامتلأ قلبه حبًا ودفئًا . هنا كتب أولى قصائده التى نشرتها جريدة "صوت الطلبة" فأكسبته شهرة بين زملائه . فى هذا الشارع تعرف على معظم أصدقاء عمره الذين يشغل الكثير منهم الآن أرفع المناصب ، والذين طبقت سمعة بعضهم الآفاق فى ميادين الأدب والفن والسياسة ، وأهم من ذلك كله "وردة" التى تقطن فى هذا الشارع والتى لم يفارق طيفها خياله طيلة هذه السنوات الطوال ، إنه يتخيلها وقد انتظرت عودته طويلاً حتى يئست من الانتظار ، كيف طاوعته نفسه فخيّب أملها ، وكيف أخفى رسائلها ولم يجد فى نفسه الجراة للرد عليها ، أو لم يجد ردًا يقوله ، ورأى أن الصمت أبلغ من الكلام .

تفرس فى جانبى الشارع فى البنايات التى تغير القليل منها وبقى الكثير منها على حاله ، تعرف على كثير من المعالم ، لكن أحدًا لم يتعرف عليه ، الوجوه وحدها تغيَّرت ، أصحاب البقالات والمطاعم والمكتبات كلهم وجوه جديدة غير مألوفة له وإن كانت المحلات ذاتها لم يطلها إلا تغيير طفيف .

إنه الآن يقترب من المنزل الذى شهد ميلاد حبه القديم ، حبه الأول والأخير ، وهو لا يدرى لماذا جاء اليوم إلى هنا ، هل حقًا يريد أن يقابل وردة ولماذا يقابلها ؟ وماذا سيقول لها لو التقيا فجاة وجهًا لوجه . إنه لا يحلم باكثر من رؤيتها ، رؤيتها من بعيد دون أن تراه ، ولا يطمع باكثر من

خيط رفيع من أخبارها ، خيط يخبره أنها تزوجت وأنجبت وأنها تعيش حياة سعيدة ، فيطمئن إلى أنه لم يسبب لها تعاسة بالغة حين نكث بوعده معها ، وأنها لم تنتظره طويلاً بل استبدلت به من هو خير منه ، من يستحقها فعلاً ، من لم يهرب من التزامه معها عند أول امتحان . عندها سيزيح حملاً ثقيلاً عن ظهره ، وعبئًا هدّ منكبيه سنينًا طويلة . سيخف قليلاً إحساسه بالذنب ويهدأ ذلك الشعور الذى يطارده ويؤنبه ليل نهار ، بأنه قد خدع فتاة طيبة ما كانت تستحق الخداع ، أوهمها ووعدها ثم فر هاربًا ، وأخلف وعده وتركها تنتظر السراب .

إن موقفه هذا قد أرغمه على الانقطاع بصورة غير مفهومة عن صديقه "حسن" الذى كان أعز أصدقائه ، وعن السؤال والاتصال بأهل هذا البيت الطيبين الذين كانوا له أهلاً عندما كان بعيداً عن أهله .

إنه الآن مقابل بوابة هذا البيت الذى أحبه ، وأحب كل ساكنيه . لم يتغير شيء فى ملامح هذا البيت ولا فى حديقته الأمامية الوارفة الظلال ، وأشجارها المتشابكة .

إن الأستاذ حمدان يكاد أن يتوقف عن المسير ، رجلاه ترتجفان ولا تقويان على حمله ، وعيناه تحملقان ناحية المنزل ونوافذه وشرفاته الواسعة ، علّه يلمح على البعد طيف "وردة" ، ثم يمضى سريعًا لا يتلفت وراءه ولا يتوقف لو سمع صوتها يناديه ، فما عساه أن يقول لها لو نظرت إليه نظرة عتاب واحدة دون أن تفوه بكلمة .

أفاق حمدان من ذهوله على مشهد أطار لبه ، وأفقده وعيه واتزانه ، كانت تغادر البقالة التى وصل أمامها ، وقد حملت فى يدها بعض الأغراض التى اشترتها . إنها "وردة" بذاتها وصفاتها ، وردة التى عرفها وأحبها ، وردة ابنة الثمانية عشر عامًا التى عرفها .. لازالت كما هى يوم عرفها

بجمالها ونضارتها وشبابها . كيف لم تتغير ؟ هل توقف الزمن عندها ؟ لماذا غزاه الشيب من كل جانب ، وتغضن وجهه ، ونفرت عروق بدنه ، وبقيت "وردة" على حالها ؟

تُرى هل عرف الناس في بلادنا سر الاستنساخ قبل أن يعرفه أهل الغرب فهذه نسخة فتية من وردة ؟

رغم انبهاره وتحديقه الطويل فيها ، وقد فغر فاه من الدهشة وهول المفاجأة ، إلا أن الفتاة لم يبدر منها ما يشير إلى أنها عرفته أو رأته قبل هذا اليوم . لقد استغربت من إطالته النظر إليها ، وتوردت وجنتاها خجلاً وهمت بالانصراف مسرعة ، لكنه لم يطق على الصمت صبراً وناداها :

– وردة ؟

– نعم أنا وردة ، هل تريد شيئًا يا عمى ؟

صعقته المفاجأة .. "وردة" ، وتقول "عمى" ! كيف لم تعرفنى ؟! كيف وصلتُ إلى سن عمها وبقيتْ في سنها لم تتغير ؟! وكرر السؤال :

– هل أنت وردة محمود ؟

تبسمت الفتاة وقالت :

– وردة محمود ، إنها أمى ، لقد سمّانى والدى باسمها . لا أدرى ألشدة شبهى بوالدتى أم لشدة حبه لها ؟ هل تعرف أمى يا عمى ؟

– أجل .. أجل ..

أجاب الأستاذ حمدان متعلثمًا ، إننى أمت بطرف قرابة لوالدتك ولم أرها منذ زمن بعيد .

– إذن تفضل يا عمى شرّفنا بزيارة ،هذا بيتنا أمامك .

– وهل والدك موجود فى البيت ؟

– لا إنه مسافر ، يعمل فى الخارج ، وأسكن أنا وأمى وإخوتى الخمسة

في بيت جدى . تفضل ، شرّف .

– لا ، ليس الآن ، سازوركم مساءً إن شاء الله ، سلّمى على الوالدة .

– ممن أبلغها السلام يا عم ؟

– قولى لها من قريب سيزوركم هذا المساء ، اتركيها مفاجأة لها .

حل المساء وانتظرت الوردتان وسائر أفراد الأسرة زيارة القريب البعيد ، وطال الانتظار ، وما عرفت الأم "وردة" من هو الزائر الموعود ، وإن كان لها أن تخمن من هو فربما عرفته من طبعه فى إخلاف الوعود .

كان الأستاذ حمدان قبل حلول المساء يركب الحافلة التى تغادر العاصمة متجهة إلى بلدته . وصل بيته متأخراً ، اندفع نحوه أبناؤه يتصارخون .

قال أحدهم :

– أين كنت يا أبى ؟ لقد افتقدناك ، افتقدتك أمى عندما فرغت أسطوانة الغاز ولم نجد من يستبدلها لنا . .

وقال آخر :

– افتقدناك يا أبى فاليوم جمعة ولم تحضر لنا مؤونة الأسبوع المعتادة من الخضار واللحم والفاكهة .

وقال ثالث :

– لقد افتقدناك يا والدى ، فأنا لم أشتر لوازمى من الدفاتر والأقلام التى طلبها المدرس .

وقالت ابنته :

– وأنا افتقدتك يا والدى لتحل لى واجب القواعد ، إنه صعب جداً .

عندما فرغوا جميعًا من طلباتهم أقبلت ابنته الصغيرة "أمل" وقالت :

– أنا افتقدتك يا أبى لأنام فى حضنك فتدللنى وتغنى لى أغنياتك الشجيّة ، وتهدهد على ظهرى حتى أنام ، فأين كنت يا أبى ؟

– كنت فى رحلة نقاهة يا ابنتى .

– رحلة ! إلى أى مكان ذهبت ؟ لماذا لم تأخذنى معك ؟

– إنها ليست رحلة إلى أى مكان يا ابنتى ، إنها رحلة فى الزمان .

لقد ركبت القطار السريع الذى يمضى براكبه إلى كل المحطات التى يريدها والتى لا يريدها ، إنه قطار الزمن .

جارنا الأنيق

كان أكثر ما يلفت النظر في جارنا "محفوظ" أناقته الزائدة ، مع أنه ليس في مقتبل العمر ، بل تخطى منتصفه ، يشهد على ذلك هذا الحشد الكبير من البنين والبنات الذين تمتلئ بهم شقته المقابلة لنا في نفس الدور ، وهم من مختلف الأعمار ، فيهم من نلحظه يحبو على أربع محاولاً الانفلات والخروج كلما فُتح باب الشقة ، وفيهم من تدل هيئته ونوعية الكتب التي يحملها أنه قد خطا خطواته الأولى نحو الجامعة ، وبين هذا وذاك حشد ما أحصيت لهم عدّا .

كان حريصًا على موعد خروجه وعودته بدقة متناهية . في السابعة صباحًا بالضبط ، ينفرج باب الشقة المقابلة كأنما يضبط نفسه على ساعة "بيج بن" ، وإذا ماخرجت في نفس اللحظة مصادفة أو معتمداً ، فستقابل السيد "محفوظ" وجهًا لوجه ، بطوله الفارع وبدلته الرمادية أو السوداء المقلمة أو البنية الداكنة . إن له ذوقًا رفيعًا في لبسه ، يحسن اختيار الألوان القاتمة والوقورة التي تناسب الكهول من أمثاله . قميصه الأبيض الناصع وربطة عنقه الأنيقة التي اختيرت بعناية لتتناسب مع لون البدلة وهيئة ياقة المعطف عن يمينها ويسارها ، فالربطة عريضة إن كانت ياقة المعطف عريضة خلفت وراءها مساحة واسعة مكشوفة من الصدر ، والربطة دقيقة قليلة العرض إن كانت ياقة المعطف ضيقة ، أو كان من النوع الذي له صفان من الأزرار .

في كلتا الحالتين لايغادر ذلك الدبوس الذهبي موقعه عند منتصف الربطة أو أعلى من ذلك بقليل ، ذقنه الحليقة لساعتها ، شارباه الأسودان

وقد قُصا بعناية فائقة ، كأنه يمر عليهما بمقصه كل صباح فيشذب ما طال أو نفر منهما .سنه الذهبية التى تلمع عندما يرد عليك تحية الصباح أو المساء .

كان وجهه الطويل مائلاً إلى النحافة ، ليتناسب مع رشاقة بدنه التى يحتفظ بها رغم تقدم العمر به ، لاشك أنه كان رياضيًا فى شبابه .

وكان شعره لايزال غزيراً أسود لم يغزه الشيب بعد ، أو أنه كان يحرص على صبغه فلا يبدو منه إلا سواده الفاحم . لقد صفف هذا الشعر بعناية فائقة ، أحسن اختيار موضع مفرقه ، ثلث شعره ينسدل على يمين رأسه مع ميلة خفيفة نحو الخلف ، وثلثاه يتجه صوب اليسار ، مع بروز لخصلة من الشعر فى مقدمة الرأس على هيئة قوس ، رتبت باهتمام زائد وتدلت منها بعض شعرات على ميسرة جبهته ، تذكر السيد محفوظ بشبابه الذى لا يريد أن ينساه أو يعترف بأنه قد تجاوزه منذ أمد بعيد .

حذاؤه الأسود اللامع المدبب فى مقدمته ، إنها أناقة كاملة من القمة إلى القاعدة . كانت حقيبة يده الدبلوماسية الفاخرة السوداء تكمل المشهد ، وتضع اللمسة الأخيرة على هذا العرض الشائق للأناقة .

وكنت إذا تقابلنا وجهًا لوجه أبدأ جارنا بتحية الصباح ، فهو أكبر منى سنًا ، ثم أفسح له الطريق بعد أن أملأ ناظرى من هذه الأناقة وهذا الوقار ، أتركه يسبقنى فى نزول الدرج .

لولا أننى لم ألحظ فى يوم من الأيام الكثيرة التى متعت عينى فيها بمتابعة السيد محفوظ عند مغادرته سيارة سوداء فارهة فى انتظاره عند مدخل العمارة لجزمت بأنه دبلوماسى مرموق .

لكننى مع عدم وجود السيارة المنتظرة رجحت أنه محام جهبذ يسارع مع أنفاس الصباح الأولى إلى مكتبه فى إحدى البنايات الشاهقة المصطفة

حول الميدان الرئيسى بوسط العاصمة . يراجع أوراقًا أعدتها له سكرتيرة دؤوب بهية الطلعة ، رتبتها له ترتيبًا دقيقًا يتناسب مع هذا التناسق البادى على هيئته ، فيلقى عليها النظرة الأخيرة استعداداً لمرافعة هذا اليوم .

كان مشهد السيد محفوظ – وأنا ألاحظه كل صباح وهو يسير بخطى واثقة سريعة ، وقد أطبقت يمناه على مقبض حقيبته فركنت إلى جانبه بثبات واطمئنان – طويل القامة ، يشق الزحام ويبتعد عن ناظرى حتى لا يبدو منه سوى رأسه مثل سارية تمخر عباب الموج حتى يغيبه منعطف الشارع عن عينى .

كان هذا المشهد الصباحى واحداً من المعالم الرئيسية التى أبدأ بها يومى، إلى جانب زرافات الأطفال من فتيان وفتيات وقد توجهوا لمدارسهم القريبة سيراً على الأقدام ، وجموع العمال المحتشدين فى موقف الحافلات التى تمر مكتظة بركابها فى بداية النهار ، إلى جانب الصبايا الأنيقات وقد توجهن إلى أعمالهن المكتبية والإدارية على مهل .

ما كنت أحرص على لقاء جارنا محفوظ وتأمل طلعته وهيئته عند عودته فى المساء ، لأن ذلك لم يكن يتوافق مع عودتى المبكرة فى الثانية من بعد الظهر .

فى المرات القليلة التى قابلته فيها مصادفة أثناء عودته مساءً كانت الساعة تشير إلى السابعة تمامًا .

إنه يعود فى مثل موعد خروجه ،يغيب اثنتى عشر ساعة كاملة .تمعن النظر فى هيئته فتطالعك نفس الأناقة التى ودعتها فيه صباحًا عندما غاب عن عينيك عند منعطف الشارع .نفس تسريحة الشعر واصطفافه ، مايزال مبتلاً لامعًا لم تجففه حرارة الشمس وكأنه قد سُرح لتوه .

بريق حذائه ولمعانه لم يخب منهما شيء ، ولم يعلق به من غبار الشارع

أثر . يا لهذه الأناقة الساحرة الدائمة !

مضت شهور وأنا أبدأ نهارى فيها على هذا المنظر المألوف الذى اعتدته كل صباح . لا أعرف عن جارنا إلا طلعته المهيبة وهندامه الأنيق ، وغدوه ورواحه فى موعد محدد لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

ما تبادلت معه الحديث يومًا ، وما كان بيننا أكثر من تبادل التحية العابرة المقتضبة إذا التقينا وجهًا لوجه عند باب الشقة .

ذات يوم عاد زميلى أحمد ، الذى يشاركنى السكن – من عمله وقد بدت علامات الحيرة والدهشة على محياه . لم يكن طبيعيًا بشوشًا مرحًا كما أعهده ، ولا سأل عن غدائنا لهذا اليوم كعادته .

جلس صاحبى واجمًا كأن رأسه الطير ، ثبت مرفقيه على طاولة أمامه وأسند رأسه بكلتا يديه وراح فى ذهول عميق .

راعنى منظره فى سرى لا شك أن طامة كبرى قد حلت به ، فسألته متلهفًا :

– ما بك يا أحمد ؟ هل أنت مريض ؟

لم يرفع صديقى رأسه ولم يفق من ذهوله ، ولم ينبس ببنت شفة . كان يومئ لى برأسه بالنفى كلما سألته عن شىء .

أحضرت له كوب ماء وجلست بجانبه أنتظر ريثما يلتقط أنفاسه ،ولم أعد ألح عليه فى السؤال ، تركته حتى يبدأ الكلام بنفسه ، فهو لن يطق صبراً على الصمت إلا ريثما تتجمع لديه الكلمات ، ويلتقط طرف الخيط ، ولم يخيب ظنى ، فما هى إلا لحظات حتى نطق قائلاً :

– اسمعنى جيداً ، هل تعرف شخصًا فيه العلامات البدنية الثلاث التالية :

أولاها : اعوجاج فى خنصر يده اليمنى من أثر ضربة أو كسر قديم

يجعله ناتئًا عن مستوى باقى أصابعه إن مدّ يده .

وثانيتها : علامة على يمين جبهته عند مقدمة مفرق شعره من أثر جرح قديم على هيئة هلال طرفاه يتجهان إلى أعلى .

وثالثتها : ثألول أحمر دقيق فى مأق عينه اليمنى ؟

وكرر صديقى سؤاله :

– هل تعرف شخصاً يحمل هذه العلامات الثلاث مجتمعة ؟

– هل مات وتريدون التعرف عليه ؟

– لم يصب بسوء أبداً ، هل تعرفت عليه ؟

أطرقت قليلاً محاولاً تذكر معارفى وما قد يحملونه من علامات فارقة ، ولما لم أتذكر أحداً بهذه العلامات أجبته :

– لا ، لا أعرف أحداً بهذه العلامات . وهل كل هذا الهم الذى تحمله ، وهذا التجهم البادى على وجهك سببه هذه العلامات ؟ ما أهمية ذلك بالنسبة لك ؟

قال صاحبى :

– لا تأخذ الأمر بسخرية . إنه فى غاية الجد وسأعلمك به عندما تنفذ ما أطلبه منك .

قلت :

– هات ما عندك .

– عليك أن تذهب بعد تناول غذائك إلى الطرف الغربى من المدينة ، سأصف لك الشارع ورقم الحافلة التى توصلك إلى هناك ، وأصف لك سبيل الوصول إلى مقهى «الاستقلال» . إنه مقهى فخم يتكون من طابقين ،يتربع على ناصية الشارع ، وقد احتل جزءاً واسعًا من رصيفه العريض على طريقة المقاهى الباريسية . ستجلس على واحدة من الطاولات القابعة على

الرصيف ، تتأمل وجوه المارة وتطالع صحف اليوم كلها ، فهذه خدمة إضافية مجانية يقدمها هذا المقهى لزبائنه ، ولا تغفل عن مهمتك الرئيسية التي أرسلتك من أجلها .

قلت :

– وما هي مهمتي الرئيسية ؟ أنت لم تفصح عنها حتى الآن .

– تراقب ذلك المتسول الذي يجلس قبالة الباب الغربي للمقهى ، لا تهمني أوصافه الظاهرية ، فقد حفظتها عن ظهر قلب وأستطيع أن أسردها لك قبل ذهابك لتتعرف عليه بسهولة ولتركز على غيرها . ساقاه مشلولتان يجرهما جراً ولذلك لا يتحرك إلا زاحفًا على يديه ورجليه ، سرواله الأسود البالي المرقع برقعتين حمراوين عند الركبتين ورقعتين خضراوين على جانبي مؤخرته ، قميصه الأبيض المقلم بالأزرق ، والذي لم يعد التمييز بين اللونين سهلاً لاستحالة بياضه إلى ظلمة داكنة . شعره الأشعث الأغبر الذي غلبه الشيب ، كل هذه الأوصاف وغيرها الكثير من الملامح التنكرية أحفظه جيداً ، حتى السن الذهبي الذي أخفي لمعانه بقطعة لبان عرفته أيضًا .

– أريدك أن تدقق في العلامات الثلاث التي ذكرتها لك سابقًا ، العلامات الطبيعية المميزة التي نسي إخفاءها . خنصر يده اليمنى ، الجرح الهلالي على ميمنة جبهته ، الحبة الحمراء في مآق عينه اليمنى .

– إنها سهلة – كلها في ميمنته فلعله من أصحاب اليمين .

قلت :

– لعله عكس ذلك ، إنها عيوب ظاهرة في ميمنته ، ولم تلحظ عيوبًا في شماله ، فشماله سليم ، فلعله من أصحاب الشمال ، والله أعلم.

– عندما تتأكد من وجود هذه العلامات الثلاث تعود إليّ ، وسأخبرك من هو صاحبها .

قلت :

– وأنت يا صاحبى أما تأكدت من هذه العلامات وقد وصفت لى هيئته كاملة ؟ .

– لقد تأكدت منها ، ولكننى لم أصدق ما رأيت ، لقد كذّبت عينى ، وأردت شاهداً آخر يشهد معى على صدق ما رأيت . شاقنى حديث صاحبى ، وأثار فضولي للتعرف على هذه الشخصية المهمة التى أثارت اهتمام صديقى ، وكدرت صفوه إلى هذا الحد . هذا المتسول اللغز الذى سأتعرف عليه بعد حين . لم أطق الانتظار لتناول الغداء في المنزل ، عزمت على أن أتناول أى شىء يسد رمقى فى الطريق ، وخرجت ميمماً وجهى صوب مقهى الاستقلال الذى وصفه لي صاحبى .

كانت حركة السير خفيفة سريعة قبيل العصر ، فالناس قد عادوا إلى بيوتهم وخلدوا إلى قيلولة ما بعد الظيهرة . لن تعود الشوارع لتغص بالسيارات والمارة إلا بعد العصر . وصلت هدفى المنشود فى سرعة قياسية .

تعرفت على بغيتى فوراً فهو من ابرز معالم هذا المقهى العريق ، يجلس ملاصقاً لركن الباب الغربى نقدته بضعة قروش عربون تعارفنا الأول ليطمئن لجانبى فلا يرتاب لنظراتى المتفحصة التى ستداهمه بعد قليل ، جلست قبالته ، تشاغلت بتصفح الجرائد اليومية ، كان المقهى شبه خال وقت العصر ، فلم يحل بينى وبينه حائل ، وما استغرق الأمر منى سوى نظرة خاطفة واحدة لمحت فيها خنصره المعوج ، وعلامة الهلال على يمين جبهته والثالول الأحمر فى مآق عينه اليمنى ، فالهدف محدد سلفاً ولا يحتاج إلى طول استكشاف .

انتهت مهمتى فى لحظات ، تأكدت يقيناً من العلامات الثلاث ، وقد وعدنى "أحمد" أنه سيخبرنى من يكون هذا الرجل إن أكدت له وجود

العلامات الثلاث كما تأكد منها بأم عينيه .

لكنني ما رغبت في العودة ، غيّرت رأيي ، وعزمت على أمر آخر ، عزمت على البقاء هنا حتى أكتشف بنفسي بقية هذا اللغز ، ولو انتظرت إلى ساعة متأخرة من الليل ، سأتبعه من بعيد ودون أن يراني إلى أي مكان يذهب إليه . إن أحمد لم يذهل هذا اليوم لأمر هيّن ، ولابد أن وراء ذلك سراً خطيراً ، سأكتشفه بنفسي .

بعد العصر بدأ الشارع يزدحم بالمارة، والمقهى تعج بروادها مما خفف عليّ من طول الانتظار ،تشاغلت بتأمل زحام السابلة حيناً ، ومتابعة لاعبي الشطرنج والدومينو حيناً آخر ، لكنني ما غفلت طرفة عين عن هدفي المنشود ، الجالس أيضاً بجانب الباب الغربي للمقهى ، وهو يومئ لداخلي المقهى وللمارة بإشارة من يده ورأسه ، ويهمهم ببضع كلمات غير مفهومة مستجدياً عطفهم وإحسانهم فينقدونه بدراهمهم . لقد أحسن اختيار الموقع ، إنه مقهى فخم في شارع راقٍ يؤمه عليّة القوم وأثرياؤهم ، وله من كل عابر أو داخل للمقهى نصيب .عندما غادر مكانه زاحفاً على أربع إلى دورة المياه المجاورة كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف . تبعته بحذر حتى لا يرتاب في أمري لمحته من بعيد يدخل واحداً من الحمامات الأربع المصطفة بجانب بعضها ، ما إن اطمأنيت إلى أنه قد أوصد الباب وراءه حتى أسرعت وولجت الحمام المجاور للحمام الذي دخله ، كتمت أنفاسي وأرهفت سمعي ، اختلطت الأصوات في أذني ،صوت حقيبة تنفتح ثم تنغلق عدة مرات ،صوت فرشاة تلمع حذاء .

ما سمعت صوت حنفية ماء ولا "سيفون" ولا ما يدل على أن جاري قد استخدم الحمّام لغرضه الأساسي الذي يدخله الناس من أجله .

مضت بضع دقائق على انتظاري وحبس أنفاسي ، انفتح بعدها باب

الحمام سريعًا ، تريثت لحظة لأعطيه مهلة للتحرك حتى لا نخرج سويًا وتقع العين على العين ، فتحت الباب بعدها، وألقيت نظرة فاحصة شملت المكان كله ، وياللهول ما رأيت! كان جاري الصباحي محفوظ يغادر عتبة الباب الخارجي لدورة المياه بقامته الممشوقة ، وبدلته السوداء المقلمة ، وحذائه الأسود اللامع ، وشعره المسرَّح بعناية فائقة ، وفي يده حقيبته الدبلوماسية السوداء ، ومضى يذرع الشارع بهيبته وأناقته المعهودة وأنا أتابعه في ذهول.

فى قصر البخارى

فاجأته هذه الرسالة التى حملتها إليه سكرتيرة المدرسة بنفسها ، ولم تودعها فى صندوق بريده الخشبى الخاص به ، والمدوَّن عليه اسمه ، يجد داخله رسائله الخارجية أو التعاميم المدرسية الداخلية الموجهة إليه .

قلب الرسالة وجهًا وظهراً فلم يعثر على اسم المرسل ،خيِّل إليه أنه عرف الخط وصاحبه . دقق فى الختم الكبير المثبت على وجه الرسالة قبل أن يفتحها . اتسعت حدقتا العينين ليتأكد مما طالعه أول مرة ، هاله الأمر ، أحس بجفاف فى الحلق ، وبرودة تسرى فى العروق ، وعرق يتصبب من الجبين ، وغمرته موجة من الخوف والفزع وهو يعاود النظر فى الختم الدائرى، وحروف الكلمتين الشاخصتين فوقه «سجن المدية» . والمدية هذه مدينة تتربع على قمة جبال «التيطرى» فى وسط الجزائر على مسافة حوالى ثمانين كيلو متراً جنوبى العاصمة . طريقها جبل وعر . لقد مر بهذا الطريق مع صديقه محمود فى العام الماضى فى إحدى رحلاتهم الترفيهية والاستطلاعية التى اعتادوا عليها فى معظم العطل الأسبوعية ، فهذه البلاد جميلة ساحرة فى شواطئ بحرها وقمم جبالها .

أين تقع العين على مثل شاطئ «نادى الصنوبر» و«سيدى فرج» أو مثل «خليج بجاية» أو الكهوف العجيبة فى الطريق الساحلى إلى «جيجل» حيث يتعانق البحر والجبل وخضرة الغابات مع زرقة المياه . وأنى لك أن ترى قمة شامخة متوجة بأكاليل الثلج فى منتصف الصيف مثل قمة «تكجدة» أو «لا لا خديجة» ! وقد اختلط بياضها بخضرة غابات الأرز التى تغطى السفوح والشعاب . إنها تفوق أرز لبنان عداً ، لكنها لم تنل شهرته . ألم

يصف البير كامو هذه البلاد بقوله «إنها يونان في الأسمال» ؟

فض الرسالة بيدين مرتعشتين ، وقد فطن لخطورة الموقف الذى جعل السكرتيرة تحمل إليه الرسالة بيدها فور تسلمها ، ولم تُودعها الصندوق لأنها لا تحتمل التأخير . خطر بباله مثلما خطر ببال السكرتيرة ، وربما المديرة ومن اطلع عليها من المُدرسين والمُدرسات أنه هو المقصود ، وأن هذه الرسالة تتضمن استدعاء له من قبل إدارة سجن «المدية» .

أيكون مطلوبًا أو مهتمًا بجريمة لا يعرفها ؟ أفزعه هذا الاحتمال فهو لم يكن يومًا متهمًا أو طرفًا فى قضية ، ولا دخل قاعة محكمة قط .

كان يُمنى نفسه وهو صغير أن يدخل قاعة محكمة ، ليشاهد مرافعة المحامين ، ويستمع إلى حججهم التى تقلب الأسود أبيض ، ويرى الأعناق تشرئب لدى سماع طرقات المطرقة الخشبية ، والعيون تتعلق بالمنصة وبالقاضى الذى يصدر الحكم . تنبه ، فدفع التهمة وتمتم :

– هل يُستدعى الناس للسجون بالرسائل ؟

لو كان المقصود حقًا لجاءه الشرطى ، قيد يديه واقتاده إلى سيارة محكمة الغلق . نطق فى وجل :

– لعله ينتظر بالإدارة ولم يشأ الدخول حتى لا يثير بلبلة فى المدرسة .

لكن السكرتيرة لم تبلغه أن شرطيًا فى انتظاره ، سلمته الرسالة ومضت . قرب الورقة من عينيه ، دقق فى أسفلها أولاً ، لمح اسم «أسعد» ، انزاحت الغمة قليلاً عن صدره ، اطمأن إلى نجاته أولاً و«يا روح ما بعدك روح» التقط أنفاسه وبدأ يقرأ :

– «أخى محمد أكتب إليك من سجن المدية . . أرجو أن تخبر مدير مكتب الارتباط المسؤول عنا بمكان وجودى ليراجعوا المسئولين فى أمرى . أسعد» .

مضت الحصة طويلة كئيبة وهو يقلب الأمر من كافة وجوهه – ما الذى فعله أسعد وأودى به إلى السجن ؟

لاحظت طالباتى أننى انشغلت عنهن وعلا صوتهن حتى أصبح ضجيجًا يملأ المكان . وأنا واجم ساهم لا أحرك ساكنًا ولا أنبس ببنت شفة.

استغلت إحداهن الفوضى فوضعت ساقًا فوق أخرى فى حركة إغراء . أشحت بوجهى هربًا من بلادتها التى لم تحسن اختيار الوقت المناسب ، ولم تستطع أن تقرأ شيئًا من سحابة الغم المرتسمة على وجهى ، وتمتمت بلهجتى المحلية ، وبنبرتى المتسرعة التى تغلبنى عند الانفعال فلا يفهم أحد ما أقول «أهذا وقته ؟ أنت كمن يرش على المر سكر ؟» وما فهمت شيئًا . لكننى فهمت ، تمزقت الحجب أمام بصيرتى وفهمت كل شىء ، ما الذى ساق هذه الفتاة أمام ناظرى هذه اللحظة بنظرتها وحركتها لتوحى إلىّ بالسر الذى حيّرنى منذ قرأت الرسالة . لاشك أنها واحدة مثلها ، أغوته بنظرتها وحركتها وكان القلب خاليًا والنفس متفتقة ، ليس كقلبى الذى صادفته النظرة المتشهية فى لحظة جدب ، وسقط صديقى فى الفخ الذى نصبته له العيون ، وأحكمت عليه الطوق .

عندما ذهبت لزيارته فى أول يوم عطلة أسبوعية بصحبة صديقنا رمضان ، قابلنا حراس السجن بتجهم وغلظة ، وأفهمونا بكلام جاف مقتضب ، أنها جريمة شرف وإغواء قاصرة ، واستغلال لمهنته ومكان عمله ، وامتهان لمؤسسة تربوية .

لم نفاجأ كثيرًا ، وكانت أحاديثنا طيلة الوقت تتوقع ذلك وترجحه منذ أن أوحت لى به حركة الفتاة فى نفس الحصة التى تسلمت فيها الرسالة .

لم ينكر شيئًا مما قاله الحراس ،كان يائسًا مستسلمًا مثل الغريق الذى يتعلق بقشة ، لم يكن هناك مجال لدفع التهمة أو تخفيفها ، وكنا نعلم

حدود إمكانياتنا وقدراتنا المتواضعة ، نحن الغرباء المنقطعين فى هذا البلد النائى .لم يكن أمامنا سوى خيط واحد للنجاة ، الاتصال بأهل الفتاة ليتنازلوا عن القضية مقابل أى شيء ، فهو مستعد للرضوخ لشروطهم ، بل وبالزواج منها . المهم أن يخرج من خلف قضبان هذا السجن . انتهى وقت الزيارة فودعناه وانصرفنا وتوجهنا إلى « قصر البخارى » وهى بلدة جرداء تقع عند نهاية المنحدرات الجنوبية لجبال « التيطرى » على حافة الصحراء . حيث كان « أسعد » يعمل مُدرسًا فى المدرسة المتوسطة للبنات .

اتصلنا بزملائه ومعارفه ،عرضنا عليهم فكرة الاتصال بخصومه والسعى للصلح معهم ، بل وإمكانية الزواج من الفتاة ، واندهشنا فلقد تهرب زملاؤه من الموقف وانكروا صلتهم به .

بدا لنا « أسعد » وكأنه قد عاش فى هذه البلدة سنواته الثلاث وحيداً منبوذًا حتى من أبناء وطنه . أذكر أن الذين قابلناهم اليوم كانوا ضيوفًا على مائدته عندما زرته زيارتى الوحيدة فى الصيف الماضى .

دعاهم جميعًا ابتهاجًا بزيارة صديقه القادم من الجزائر العاصمة والذى عنده مستقره كل نهاية أسبوع . يبيت عند صديقه ويمضى النهار التالى متابعًا دروسه ومحاضراته فى الجامعة ، ناقلاً من زملائه مافاته من محاضرات خلال الأسبوع ، ويعود فى قطار المساء إلى « قصر البخارى » . إنه الآن فى نهاية سنته الثالثة بقسم الجغرافيا بكلية الآداب .

فكرنا فى الاتصال بوالد الفتاة ، فهولوا الأمر وحذرونا من سوء العواقب لو تجرأنا على هذه المغامرة .كانوا كمن لقنوا درسًا واحدًا وحفظوه عن ظهر قلب ، فحواه الابتعاد عن « أسعد » وتجنب سيرته وإنكار الصلة به .

خاب مسعانا وغادرنا قصر البخارى بعد مغرب ذلك اليوم ، ولم يكن أمامنا إلا المسير ، فلا مكان نلجأ إليه ، وكانت سيارتى « الستروين »الخفيفة

ضعيفة العزم فى المرتفعات الجبلية خير معين لنا فى تجنب السرعة رغماً عنا، وكلما ازداد الطريق صعوداً ازداد لهاثها وارتفع صوتها .

كان أسعد قصير القامة ، ضئيل الجسم ، غامق اللون ، يضع على عينيه نظارتين سميكتين كان إحداهما قعر كوب كبيرة ، ويرتدى معطفاً أسود مقلماً عندما قابلته للمرة الأولى منذ حوالى عامين فى بيت زميلنا محمود .

رغم أننى لم أرتح لسحنته ولم أعره اهتماماً فى لقائنا الأول ، إلا أننى لا أذكر كيف نفذ إلى عالمى وأصبح صديقاً لى يزورنى أسبوعياً فى شقتى ، فى حى «باب الواد» ، فيجد عندى الملاذ والراحة من مشقة السفر الطويل .

والحقيقة أننى وجدته دمث الخلق صاحب نكتة وضحكة مدوية ، وصاحب صوت غنائى رخيم ، كل هذه المواهب كانت متوارية وراء وجهه الدميم وهيئته المزرية التى تقتحمها العين وتستهين بها .

كان طباخاً ماهراً بالنسبة لنا نحن العزاب ، يتقن لف ورق العنب ، وحشو الكوسا ، وعمل الكفتة ، وكنت انتظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر ، وقد أعددت كل شيء انتظاراً لطبق الأسبوع الشهى الذى سيصنعه .

كان يانس لمسكننا ، ونستطيب طعامه ، ونطرب لصوته إن انطلق مغنياً، ونضحك من أعماق قلوبنا لنكاته الجديدة .

لبث صديقى فى السجن عاماً ونيفاً ، كنا نزوره بين أسبوع وآخر ، وتقبل الأمر على مرارته وكان أحياناً يتحفنا ببعض النكات الطازجة ، فنعجب كيف تواتيه النكتة وهو فى هذه الحال .

ثم حانت محاكمته ، وانعقدت المحكمة فى البلدة التى شهدت الواقعة فى «قصر البخارى» ، وحكم عليه بالسجن مدة تقل عن المدة التى أمضاها فى السجن ، وأطلق سراحه ولكن بكفالة لأن خصومه لم يرق لهم الحكم ، ورأوه مخففاً فاستأنفوا ، ومعنى هذا أن يظل موقوفاً عن العمل ممنوعاً من

السفر إلى أن تبت محكمة الاستئناف في القضية .

وتعجبت إذ لم يحضر محاكمته أحد من زملائه أو معارفه سواى .

عندما صدر قرار الإفراج عنه لم يجد غيرى فى انتظاره وما كان بوسعه العودة إلى مسكنه فى القسم الداخلى بالمدرسة ، فهو موقوف عن العمل منذ أكثر من عام . صحبته فى سيارتى خارج البلدة وانتحينا جانبًا فى طريق فرعى بعيد عن الأنظار حتى حل الظلام ، ثم استأذنته فى الذهاب إلى البلدة لإحضار بعض الطعام لعشائنا وتركته وحيداً .

كنت قد خططت لأمر وعزمت على تنفيذه بمفردى هذه المرة دون أن أستشير أحداً فيثبط عزيمتى ويصرفنى عما نويت فعله كما حدث فى المرة الأولى .

كنت قد عرفت مع طول المدة أن خصم صاحبى هو مدير مكتب البريد بالبلدة ، فتوجهت نحو مكتب البريد الذى كان مقفلاً وبحثت عمن يدلنى على بيته ، لن أثير الريبة فلا أحد يعرفنى هنا .

قادنى الدليل عبر حارات وأزقة متعرجة نحو البيت الأبيض الكبير المنتصب عند منحنى الطريق فى أسفل المنحدر ، وأشار بيده : هذا هو بيت « سى رابح » وتركنى وانصرف . استجمعت قواى وقرعت الباب قرعة طويلة، وانتحيت جانبًا على يسار الباب ، وسط الظلمة . كنت مضطربًا متردداً أنتظر المصير المجهول والرد على وساطتى ، وسألت نفسى :

– ما الذى أقحمنى فى هذه المهمة الخطرة وجشمنى كل هذه الأخطار من بين جميع معارفة ؟ ألا يكفى ما قدمته له ؟ أكان ضروريًا أن أتبع ذلك كله بإلقاء نفسى إلى التهلكة وتعريضها للمخاطر التى قد تلحق بمن يقتحم عرين الأسد ؟ وإذا ما ولجت عتبة هذا البيت فمن يدرى عنى فى هذه البلدة النائية القائمة على أبواب الصحراء الكبرى ؟

استسلمت لمخاوفى وهواجسى ، ورضيت بالمصير المكتوب الذى سيتكشف بعد لحظات . أفقت من ذهولى على صوت رجل يقف أمامى . كان ضخم الجثة ، يلف جسده بعباءة داكنة . لم أتبين مع الظلمة ملامحه، خاطبنى قائلاً :

– تفضل .

ترددت فى الدخول وحرت فى أمرى ، كيف أبدأ معه الحديث الصعب الذى قدمت من أجله ؟ وكيف أعرفه بنفسى ؟ من أين لى أنا الفتى الغِرّ بالكلمات المناسبة التى تقال فى مثل هذا المقام ، والتى تتناسب ومقام الوساطة الصعبة التى أقحمت نفسى فيها ؟ ومن أكون أنا بالنسبة للطرفين؟ حتى الطرف الذى أمثله لا يعلم شيئًا عن خطوتى التى أقدمت عليها بمفردى . ، استشارته .

كيف أنتقى كلمات فصيحة مؤثرة تعبر عن أسفنا واعترافنا بالخطأ الفادح الذى ارتكبه زميلنا ، وأننا نطلب العفو والصفح ، ونسعى لجبر ما انكسر ، ولم الشمل والتشرف بالمصاهرة . كيف أحسن التعبير عن كل هذا واللهجة غير اللهجة والتقاليد والأعراف ربما كانت مغايرة لما نعهده فى بلادنا ؟

ألح الرجل علىّ فى الدخول ، وجمعت خواطرى كلها فى جملة واحدة مقتضبة همست بها متلعثمًا على استحياء :

– أنا من طرف أسعد .

وصمتُّ . مد الرجل قامته فبدا أمامى أطول مما لمحته للوهلة الأولى . اقترب منى وحدق فى وقال كأنه يخاطب شخصًا انتظره طويلاً :

– بدرى يا شيخ ، تو فطنتوا ، وين كنتو نايمين من يومها ؟ ليش ماجيتوا من نفس اليوم ؟ الآن وقد كبرت المسألة وتعقدت وصارت فضيحة

على كل لسان نكتوى بنارها منذ عام ونصف ؟

أخجلتني كلماته لكنها طمأنتني فقد كانت أهون كثيرًا من الشر المستطير الذى توقعته فى بعض اللحظات ، ولعنت كل الذين ثبطوا عزيمتى وثنونى عن لقائه فى المرة الأولى . أردف قائلاً :

– ماذا تريد الآن ؟

اختصرت الموقف قائلاً :

– إن أسعد موجود هنا وأنا أفضل أن أجمعه بك تلتقيان سويًا وجهًا لوجه وتسويان المسألة من كافة وجوهها .

لم يمانع الرجل وقال :

– أدخله على بركة الله .

استأذنته فى الذهاب لإحضاره وأخبرته أننى جئت للاستئذان وجس النبض ، وأنه موجود فى مكان قريب ويمكننى العودة معه فى حوالى نصف ساعة . رجعت لأسعد وقد ارتاب لتأخرى عليه وسألنى عن العشاء. قلت :

– بل تتعشى فى بيت عمك ، « سى رابح » .

لم يصدق ما قلته . صعقته المفاجأة وأذهلته جرأتى فى اقتحام عرين الأسد ، وأسف كثيراً على أن هذا لم يحدث من أول يوم .

رافقنى أسعد وتوجهنا سويًا إلى بيت عمه « سى رابح » ، قلت له فى الطريق مداعبًا :

– أصلح من بعض شأنك وسرح شعرك فربما كانت « المحظية » تتلصص عليك بنظراتها من بعض شقوق الأبواب أو النوافذ .

كان « سى رابح » فى انتظارنا ومعه أخوه هذه المرة . جلسنا مطرقين حيين من سوء فعلتنا ، لكننى وجدت أن من واجبى أن أبدأ الحديث باعتبارى الواسطة التى جمعت بين الطرفين ، ولا يجوز أن أظل صامتًا . علىّ أن أبدأ

ولو بجملة واحدة ثم أتركهم يناقشون التفاصيل كيفما يحلو لهم . قلت :

– يا عم رابح ها أنا قد جمعت بينك وبين خصمك الذى نرجو أن يصبح صهرك ، بعد أن تتصافى النفوس والقلوب ،نحن فى بيتك فاطلب منا ما تريد .

أزحت عن ظهرى ثقلاً ولزمت الصمت والاستماع طيلة ما تبقى من الجلسة ، فقد انتهى دورى وهاهم أصحاب العلاقة يناقشون التفاصيل الدقيقة فى المهر والبيت والأثاث ، بعد أن فرغوا من حديث اللوم والعتاب الذى كان ساخنًا فى بداية الجلسة خاصة من طرف عمها .

كنا قد غفلنا عن شرب الشاى الذى وضعوه أمامنا منذ بداية الجلسة مع انشغالنا بالحديث ورهبة الجلسة وحرج الموقف ، ولاحظ مضيفنا ذلك وظن أننا نرتاب فى أن يكون قد دس لنا شيئًا فى الشاى ، فقال :

– مالكم لا تشربون الشاى ؟ أتخشون أننا دسسنا فيه سمًا ؟ . . اطمئنوا وعليكم الأمان فأنتم فى ضيافتنا .

وتناول كأسى فشربها دفعة واحدة ، وأعطانى كأسه ليزيد فى اطمئناننا، ومثله فعل أخوه مع صاحبى .

لم تكن فكرة السم قد خطرت على بالى من قبل ، لكن « سى رابح » قد ذكرنى بمخاوفى التى كانت تلازمنى فى بداية اللقاء ، وابتعدت قليلاً مع تواصل الحديث وتشعبه .

ماذا لو فعلوها بنا ثم ألقونا على قارعة أى طريق هنا ؟ أى جنى تلبسنى عندما أقدمت على هذه المغامرة ؟ كنا سنضيع فى شربة ماء أو شربة شاى . .

انتهت جلستنا واتفقنا على اللقاء فى « المدية » ، وعقد أسعد قرانه فى المحكمة الشرعية ثم أسقطوا دعوى الاستئناف .



بعد عصر يوم مشمس بديع ، وما أندر الأيام المشمسة هنا ، كنا نجلس فوق مرتفع معشوشب من الأرض ، نتجاذب أطراف الحديث ، كنا خمسة طلاب من أقطار عربية مختلفة بين هذا الحشد الهائل من الطلاب والطالبات الذين يتلقون دورات صيفية لتعلم اللغة الفرنسية فى جامعة « ديجو » بشرق فرنسا .

تحدثنا فى كل شىء : السياسة ، الحب ، جمال الطالبات خاصة القادمات من الشمال ، من اسكندنافيا .

وكان حديثنا بالعربية يحرمنا متعة التعارف على هؤلاء الشقراوات ، ويعيق تقدمنا فى المحادثة .

– ألم نقل منذ البداية ، تفرقوا تترزقوا ؟

– زملاؤنا الذين اختاروا السكن مع عائلات فرنسية كانوا على صواب .

– المهم أن تترزقوا ، لهم لغتهم ولكم رزقكم ، وفى كل خير .

على مقربة منا كانت تجلس وحيدة ، السنيوريتا « ليندا » زميلتنا الإيطالية ، إنها الطالبة الوحيدة التى تتجنبنا . لم تتبادل الحديث مع واحد منا ، تعتزل المجلس الذى نحل فيه ، وها نحن قد اقتحمنا عليها خلوتها وجلسنا على مقربة منها ، لا شك أنها ستنهض من فورها تاركة المكان لنا .

كان جمالها يفوق الوصف ،طولها فارع ، وقدها ممشوق ، وخصرها نحيل ، ساقاها مكتنزتان وصدرها ممتلئ نافر ، لوحت وجهها شمس البحر المتوسط ، فمال قليلاً إلى اللون الحنطى .

كنا نتلصص بنظراتنا نحوها ، ونفيض فى وصفها بصوت مسموع ،

فهى لا تعى شيئًا مما تسمعه . لم نترك شيئًا باديًا أو مستترًا إلا أفضنا فى وصفه .

وكان فى حديثنا كلمات سوقية بذيئة ، وكان إذا نسى أحدنا كلمة ذكره زميل بها أو جاء بمرادفها فى لهجة بلاده ، فنحن من أقطار عربية متعددة .

وكأنما راق لها الأمر ، هكذا اعتقدنا ، فهى لم تغادر المكان الذى تجلس فيه على مقربة منا ، بل كانت تصغى لحديثنا كل الإصغاء كأنها فهمت أننا نتحدث عنها .

ربما فضحتنا نظراتنا المتلصصة أو بعض إيماءاتنا الظاهرة . أفرغنا كل ما فى جعبتنا من حديث ولذنا بالصمت . وفجأة انطلق صوت أنثوى يكيل لنا سيلاً من الشتائم بلسان عربى مبين . شتائم لا تقل بذاءة عما أمطرناها به قبل حين .

أذهلتنا المفاجأة ، لم نغضب لشتائمها ، انعقدت ألسنتنا عجبًا من طلاقة لسانها بلغتنا ، وزادها الانفعال وتورد الوجنتين جمالاً على جمال . غرقنا فى بحر من الضحك على أنفسنا والخجل من سوء فعلتنا ، ونحن نتصور أنها قد فهمت كل كلمة بذيئة تفوهنا بها . تأسفنا كثيراً وندمنا على ما بدر منا وسألناها :

– من علّمك هذا كله ؟

تمنعت قليلاً وأمام إلحاحنا وتكرار اعتذارنا قالت :

– لا داعى للأسف فأنتم مثله ، مثل الذى علمنى لسانكم .

– من هو يا سنيوريتا ليندا ؟ بربك قولى .

– واحد .. مثلكم ، كان زميلى فى كلية الهندسة فى جامعة « جنوه » أحببته وتزوجته ، أمضيت معه سنوات الدراسة ، حفظت أشعار مجنون

ليلى من كثرة ترداده لها على مسامعى .

كان يسمى نفسه مجنون ليندا .

أنهى دراسته واستأذننى فى العودة إلى بلاده بمفرده بضعة أشهر يرتب أموره، يستلم عملاً ويؤثث منزلاً ثم يحضر لاصطحابى . قلت له :

ــ لا تتعب نفسك ، تنتظرنى فى المطار وأحضر بنفسى .

مضت ثلاث سنوات على رحيل صالح ، لم يصلنى منه شىء ، أرسلت له رسائل عديدة . وانتظرت طويلاً ، وقلقت عليه ، ربما أصابه مكروه ، وسافرت بنفسى إلى بلده ، إلى المدينة التى أعطانى عنوانه فيها ، إلى الشارع ذاته .

سألت عنه أعطيت للناس أوصافه ، أريتهم صوره الكثيرة التى أحتفظ بها وبينها صور حفل زواجنا ، لم يتعرف عليه أحد .

لقد كان عنوانًا وهميًا ، هرب منى صالح ، تسلّى بى حينًا ثم هرب ، كلكم مثله . ونهضت واقفة . أدارت ظهرها لنا ومضت واستمرت على عادتها تعتزل مجلسنا حتى انتهت الدورة .

إيرينا

كانت ظهيرة قائظة من أيام شهر آب ، عندما وجدت نفسى أهبط درجات السلم إلى رصيف محطة القطارات الرئيسية فى « براغ » وحيداً ، تتملكنى الوحشة والانقباض وقد رأيت الركاب جميعًا يلوحون بأيديهم ، يردون التحية لمحبيهم ومستقبليهم ، ووجدت نفسى غريب الوجه واليد واللسان .

دسست نفسى بين الجموع باحثًا عن مستودع تأمين الحقائب لأتخفف من ثقل حقيبتى الكبيرة ، وأكتفى بحقيبة اليد خلال جولتى الأولى فى المدينة بحثًا عن ملجأ آوى إليه .

ذرعت المكان لعلى أجد لافتة تحمل عنوان « تأمين الحقائب » ، فأنا أوثر البحث بنفسى ولو طال أمده على السؤال . ولما لم أجد بغيتى ، اضطررت للسؤال ، فإذا المكان المقصود مستودع متواضع لا يحمل عنوانًا ، مررت أمامه عدة مرات دون أن يلفت نظرى . ودخلت ، فإذا بامرأة عجوز أمامها طابور طويل من المنتظرين . وعلى يسارى أكداس من الحقائب تتبعثر هنا وهناك فى فوضى وإهمال .

قفزت إلى ذهنى صورة المحطات التى توقفت فيها خلال الأسابيع الماضية فى كثير من المدن الفرنسية والألمانية . إن يافطة « تأمين الحقائب » تطارد ناظريك لوضوحها وبروزها من كل اتجاه ، وتعدد الأسهم نحوها ، وفيها تجد متعة حقيقية تبهج النفس وتزيل الهم الجاثم على الصدر . إنها صالات واسعة امتلأت بمئات الخزائن المثبتة فى الجدار ما عليك إلا أن تودع حقيبتك فى إحداها ثم تقفلها ، وتضع فرنكا أو ماركا فيدور مفتاح الخزانة بين أصبعيك ، وتقفل الخزانة على حقيبتك ، وتأخذ المفتاح فى جيبك وتمضى

خفيفًا بحقيبة يدك ، تدبر شئونك ، وتؤمن مسكنك ، ومهلة التأمين هى أربع وعشرون ساعة ، وإن رغبت فى الزيادة فعليك المرور لإقفال خزانتك ليوم جديد وبفرنك جديد .

تذكرت المدن العربية التى زرتها وما أكثرها ! فما رأيت تأمينًا لا من هذا النوع الثقيل الذى أقف أمامه الآن ، ولا من ذلك النوع الخفيف الظريف الذى خلفته ورائى بالأمس . وتذكرت مسافرًا اتجه إلى طرابلس بينما حقائبه اتجهت إلى بنغازى ، وآخر وصل إلى القاهرة ووصلت حقائبه بعده بيومين ، وثالثًا لم تصل حقائبه نهائيًا ، وآخر نسيها فى سيارة الأجرة ، أو يحملها صبى حمّال فيغيب فى الزحام ، وتضيع حقائب السفر .

مرت كل هذه المشاهد فى مخيلتى ، والطابور ثابت على حاله لا ينقص، والمرأة بطيئة بليدة فى حركتها . انتزعت نفسى من الطابور بانفعال وحملت حقائبى ومضيت ، وقلت فى نفسى :

– أن التأمين على الطريقة العربية أرحم من هذا بكثير .

اتجهت إلى قسم السكن بالمحطة حيث أخذت اسم وعنوان الفندق الذى سأنزل فيه ، إذ لافنادق خاصة هنا .

أخرجت من جيب حقيبتى خارطة المدينة وحددت عليها موقع فندقى وموقع المحطة التى أقف فيها ، وعرفت رقم المترو وخط الأتوبيس الذى يوصل للمكان .

والخارطة فى أوربا هى مفتاحها السحرى ، تشتريها من أى مكتبة أو كشك لبيع الصحف وبثمن لا يزيد على ثمن صحيفة يومية . فيها كل معالم المدينة التى تهمك . تستطيع بواسطتها أن تذرع المدينة سيرًا على الأقدام وتعود لمكانك بيسر وسهولة ، وأن تركب المترو أو الحافلة فى جولاتك وبأجر زهيد عوضًا عن التاكسى .

توجهت إلى الفندق الذى سأنزل فيه بعد أن حددت مكانه على الخارطة . كان الشارع خاليًا من المارة فاليوم صيفى قائظ ، تلفت لعلى أطالع لافتة تحمل اسم الفندق الذى أقصده ، فلمحت على شرفة منزل مجاور فتاة شقراء ، شعرها مسترسل على كتفيها ، تمعن النظر إلى الجهة التى أقف فيها ، غلبت علىّ تربيتى الريفية ، فغضضت بصرى ، وأدرت وجهى أتفرس المبانى واللافتات من جديد وتشاغلت عنها . ولما غلبنى الفضول وعزمت على اختلاس نظرة ثانية ناحيتها كانت قد غادرت الشرفة، أسفتُ على مغادرتها ، وعلى اللحظات التى أشحت فيها بوجهى عنها ، وعاودت النظر عبر الشارع ، وبالدهشتى واضطرابى وقد رأيتها هى بعينها تعبر الشارع متجهة صوب المكان الذى أقف فيه ، خجلتُ من وقفتى الحائرة ، وحملتُ حقائبى فعلاً وأدرت ظهرى . ولم أصدق أننى سمعت صوتها : ألو . . ألو . . لم يكن فى الشارع أحد غيرى ، استدرت ناحيتها ، كانت قد أدركتنى ، وجدت نفسى أمامها وجهًا لوجه ، فتاة رائعة الحسن والجمال ، كان وجهها وشعرها مشربين بحمرة ساحرة ، بادرتنى محيية ومدت يدها مصافحة .

أحسست بالدفء كله ، دفء القلب والعروق ، لم تمهلنى فامتدت يدها إلى الورقة التى فى يدى وأخذتها ، ومدت يدها الأخرى إلى حقيبتى الكبيرة فانتزعتها عن الأرض لتحملها ، رفضت بإصرار ولم أدعها تحمل الحقيبة ، أهذا الجمال خلق لحمل الحقائب ؟

أمام إلحاحها ناولتها حقيبة يدى الخفيفة ، ومضت أمامى .

– أتتكلمين الانجليزية ؟ ترددت قليلاً ثم قالت :

– أعرف الألمانية وقليلاً من الفرنسية .

سرنى قولها « الفرنسية » فمعرفتى بها لا تزال طازجة ، الأسبوع الماضى

فقط أنهيت دورة لتعلم الفرنسية استغرقت شهراً ونيفا فى جامعة « ديجو » بشرق فرنسا .

– وأنا أعرف القليل ، يكفينا هذا القليل .

كان الفندق على بعد خطوات فقط فى شارع جانبى متفرع من الشارع الرئيسى . دخلنا باب الفندق ، قدمت جواز سفرى وورقة الإسكان لموظف الاستقبال . نابت « إيرينا » عنى فى التفاهم معه ومعرفة رقم الغرفة والدور .

رافقتنى إلى غرفتى فى الطابق الثالث ، دخلنا الغرفة ، ألقيت بالحقائب أرضًا ، جلست على طرف السرير الوحيد بالغرفة ، أغلقت « إيرينا » الباب وراءنا وجلست فى مواجهتى على كرسى انتصبت أمامه طاولة أنيقة .

تبادلنا كلمات قليلة وتعرفتْ على الغرض من زيارتى . .

كنت فى عالم جديد حالم ، والجنية الساحرة أمامى ، وجمالها يزداد روعة كلما تحدثت بكلماتها القليلة وثغرها الباسم .

تذكرت أننى ما انفردت طيلة حياتى مع أنثى فى غرفة واحدة مغلقة ، حتى مع أمى ، فما عهدت بيتنا فى القرية قد أغلق بابه ليلاً أو نهاراً . بل هو مشرع دائمًا للداخلين والخارجين وللريح الشمالية المنعشة .

أنقذتنى « إيرينا » من ورطتى حين نهضت مسلِّمة ، وقالت :

– أنت مُتعب من السفر وتريد النوم والراحة ، سأتركك الآن وأعود مساءً .

ودعتها وأقفلت باب غرفتى وألقيت بنفسى على السرير ، لم أستطع النوم فقد ظل طيف « إيرينا » جالسًا على الكرسى المقابل ، وتساءلت فى دهشة :

– ما الذى يدفع فتاة فى حسنها إلى المبادرة بالتعارف ومد يد العون إلى عابر سبيل مثلى ، لا يلبث أن يغادر المدينة بعد بضعة أيام ؟ وتذكرت

أقوالاً من شباب زاروا أوروبا ، حول الفتيات الأوروبيات وولعهن بسمرة الشبان القادمين من بلاد حارة ، وكيف يتعلقن بهم ويجرين وراءهم ، وقلت :

- ظفرنا والله بصيد .

وعادت بى الذاكرة إلى أسابيع قريبة خلت أمضيتها في فرنسا وألمانيا فما رأيت فتاة طاردتنى أو تعلقت بى ، عشت فيهما وحيداً وغادرتهما كما دخلتهما . والآن كيف أقابل « إيرينا » عند عودتها إلى غرفتى فى المساء ؟

أأستقبلها بالأحضان أم أترك الأمور تمضى على طبيعتها وماذا لو رفضت وصرخت أو كان موقفها إنسانيًا مع سائح غريب ، تُخفف عنه وحدته فكم سيكون حجم ندمى ؟ وأى خجل يصيبنى ! وأخذتنى غفوة أفقت منها على قرع باب غرفتى .

كانت الساعة الخامسة مساء . فتحت الباب ودقات قلبى تسابقنى إليه ، طالعت وجهها البهى وابتسامتها الرقيقة وفستانها الجديد القرنفلى اللون . دخلت وعادت لجلستها السابقة على الكرسى ، لم تترك لى مجالاً للمضى فى وساوسى وحيرتى .

قالت : البس ثيابك لنخرج فى نزهة قريبة على شاطئ النهر .

امتثلت لتعليماتها ، أسرعت إلى الحمَّام ، غسلت وجهى ولبست أفضل ما معى من ثياب ، سرحت شعرى وخرجنا سويًا ، مدت يدها اليمنى وشبكت أصابعها بأصابع يدى اليسرى ، غمرنى موج من الدفء والنشوة ما عهدتهما من قبل . كان الشارع طويلاً وعريضًا محاذيًا للنهر ، تزينه عشرات التماثيل والنصب المنحوتة بدقة وإتقان ، ترمز إلى حقب تاريخية قديمة وحديثة .

إنها العراقة التى تطالعك فى كل معالم « براغ » .

قالت :

– إنه نهر « فلتافا » الذى تحنو عليه براغ من الجانبين .

وأشارت إليه.

جلسنا على مقعد خشبى نطالع عشرات الزوارق الصغيرة التى تتهادى فى سيرها على صفحة ماء النهر . ولما رأت « إيرينا »دهشتى قالت :

– إنها نزهة العشاق كل مساء حيث يفضون بأسرارهم لمياه « فلتافا » .

وددت أن أعرض عليها القيام بنزهة ، وتذكرت أنى لا أعرف فن العوم . المرة الأولى التى اعتليت فيها وجه الماء فى بداية رحلتى كانت عندما ركبت السفينة من الجزائر إلى مرسيليا بفرنسا . وفكرت فى دعوة من نوع آخر .

دعوتها لمشاهدة فيلم سينمائى شاهدنا إعلاناته المثيرة معلقة على واجهة دار السينما التى مررنا بها ، ولم تمانع . كان الفيلم ناطقًا بالتشيكية ، فلم أفهم منه شيئًا رغم محاولاتها أن تترجم لى بالكلمات الفرنسية القليلة التى هى كل ثروتها ، لم يكن الفيلم غايتى ، كانت غايتى أن أقدم فى الظلام على ما لم أجرؤ على الإقدام عليه فى النور ، واقتربت حتى لامس الكتف الكتف ، وتلاحقت الأنفاس . وسكنت جارتى فازددت ثقة ، داعبت خصلات شعرها وانحدرت الأصابع تتلمس الخدين فالوجنتين وازداد نهمى. مددت سبابة وإبهام يدى اليمنى إلى الشفتين .

أزاحت أصبعى عن شفتيها وصعقتنى كلماتها الهامسة :

– إنى متزوجة وزوجى ضابط فى سلاح البحرية ، أحبه كثيرًا وأنا مخلصة له .

تجمدت عروقى وانحبست أنفاسى .

لم أكن نادمًا على فرصة ضائعة . كان ندمى على تطاولى على بستان غيرى ، وخجلى أننى أسأت الفهم ولم أميز بين حنو إنسانى ونزوة عابرة .

وكبرت رفيقتي في عيني ، تأسفت لها وخرجنا قبل نهاية الفيلم ، سرت صامتًا لا أجد ما أقوله ، أدركت حيرتي فمدت إيرينا يدها وشبكت أصابعها بأصابعي ، وحدثتني عن « براغ » متاحفها ومعالمها الشهيرة التي سنزورها غداً ، مضت معي إلى باب الفندق ، ودعتني وواعدتني أن تمر في التاسعة صباحًا لتصحبني في الجولة الموعودة وكأن شيئًا لم يكن .

أرقت طويلاً وتساءلت :

– ما الذي يدفعها لصحبتي وتضييع وقتها مع عابر سبيل مثلي ؟

وحرت طويلاً لكنني تصورت أن أهل هذه البلدان الاشتراكية فقراء الحال ، وربما كانت تطمع في هدية ثمينة أو إنفاق سخي من سائح عابر .

قررت دعوتها للغذاء غداً في مطعم فاخر لأتيقن من صدق حدسي ، وغلبني النعاس فنمت . أيقظتني قرعات يدها الحانية على باب غرفتي في التاسعة صباحًا بالضبط .

قالت : سأنتظرك في الصالة ، في الدور الأرضي .

أصلحت من شأني وارتديت ملابسي وهبطت السلم ، نهضت من مكانها وشبكت أصابعها بأصابعي ، كعادتها وغادرنا الفندق .

قررت أن أبادر باستطلاع الاحتمال الذي رسمته في مخيلتي ، رفعت يدي مشيراً للتاكسي أمسكت إيرينا بيدي وقالت :

– الحافلة أجمل وتسير على مهل ويمكنك التعرف على معالم المدينة ، ثم إنها أرخص .

وخاب ظني ، تجولنا من شارع لآخر ومن متحف لمعلم أثري شهير . كانت تفوقني حماسًا ، وخطواتها تسابق خطواتي ، إلا عندما نريد شراء كوبين من العصير ، فقد كانت تتروى ثم تدفعني أمامها لأكون الرجل الذي يكلم البائع وينقد الثمن ، كأنها تريد إرضاء غرور الرجل الكامن في

أعماقنا . وكانت تصر فى أغلب الأحيان أن تدفع قيمة ما نشربه أو نأكله .

تعبنا وانتحينا تحت ظل شجرة وارفة الظلال فى حديقة بوسط المدينة وسألتها :

منذ متى تزوجت ؟

- منذ خمسة أشهر .

- وبماذا تتمنين أن يرزقك الله . . بطفل أو بطفلة ؟

أجابت سريعًا ، كمن أعد جوابه منذ زمن :

- طفل .

قلت فى محاولة لاقتناص فرصة لإسعادها :

- أعرف قراءة الكف وأستطيع أن أتوقع لك .

- حقًا !

قالتها بانفعال ، وألقت بكفها الأيمن بين يدى ، تناولته مدققًا فاحصًا العروق التى لا تكاد تبين لاكتناز اليد ورقتها .

كانت تتابع تأملى ولمسات أصابعى بشغف ولهفة ، تنتظر كلمتى كمن تنتظر حكمًا بالإدانة أو البراءة . تعمدت إطالة النظر والتدقيق وقد سرنى اهتمامها الفائق ، وراحة يدها المسترخية بين يدى . وقلت وأنا ابتسم فى حنو زائد :

- إنه ولد . انفرجّت أساريرها وابتسمت ابتسامة عريضة شكرتنى .

واستبد الفضول بصديقتى ، وصدقتنى ، وسألت عن المولود الثانى :

- هذا غوره أعمق ومعرفته أصعب ، وهو ليس فى عروق الكف . لم تمانع فكشفت عن الساق .

سرحت أصابعى العشرة تبحث عن العروق السابحة فى بحر من النضارة والشفافية ، وتعمدت إطالة الوقت ، فالمولود الثانى أبعد غورًا وأعمق سرًا .

وكانت قد حبستْ أنفاسها انتظاراً للحكم ، أشفقت عليها من طول الانتظار وأصدرت حكمى .

– ولد أيضًا .

فى مثل لمح البصر كانت ذراعاها تطوقان عنقى ، وطبعت على جبينى قُبلة شكر وامتنان وأخرجنا من جلستنا الحالمة هذه دقات ساعة قريبة تدق الثانية . دعوتها لتناول الغذاء وذكرت لها اسم المطعم الفخم الذى مررنا به أثناء جولتنا . تمنَّعت رفيقتى واختارت مطعمًا أكثر تواضعًا ، وتركتها تختار لى على مزاجها أكلة تشيكية . وفى اليوم التالى كنت أركب القطار المغادر إلى وارسو ، كانت المرة الأولى التى أجد فيها شخصًا يقف مودعًا لى فى محطة قطار . كانت إيرينا تلوح بيديها فى مودة خالصة .

الموعد

نظرت إلى ساعة يدى ، كانت تشير إلى الخامسة مساء ، وأنا أقف على رصيف الشارع فى الميدان الرئيسى بوسط مدينة "فرتسواف" الواقعة فى الركن الجنوبى الغربى من بولندا ، قريبًا من الحدود التشيكية والألمانية .

كنت على موعد مع رفيقتى « دانكا » فى هذا الوقت .

أقف هنا منذ قرابة ربع ساعة ، أتفرس الوجوه ، رغم أن الموعد لم يكن قد أزف بعد . إنها عادتى . فحرصى الزائد على المواعيد يجعلنى أحضر قبل الوقت المحدد ، وأظل نهبًا لقلق الانتظار ، وبطء الوقت .

كان الأولى أن أتأخر قليلاً ، فمن عادة الفتيات والنساء عمومًا التأخر فى المواعيد ، طلبًا للزينة وإصلاح الهيئة وإطالة النظر فى المرآة ، بل واصطناع التثاقل من جانب آخر .

قلت فى نفسى :

– لعل الفتيات الأوربيات غير فتياتنا ، وربما كن أكثر التزامًا بالمواعيد ، وأكثر حرصًا على قيمة الوقت .

انتشلتنى من تخيلاتى المتنافرة يد تربت على كتفى ، فاستدرت . رأيته يقف أمامى ، شاب طويل القامة يميل شعره المسترسل إلى البياض لشقرة زائدة فيه ، وهى السمة الغالبة على أبناء هذه البلاد فتيانًا وفتيات . بادرنى بالإنجليزية :

– أنت السيد ماجد ؟

ازدادت حيرتى ولم أصدق أنه يقصدنى . فمن يعرفنى فى هذه البلاد ؟ فأنا هنا منذ ثلاثة أيام ، ولم أتعرف على أحد ، ولم يعرف اسمى أحد

غير موظف الاستقبال بالفندق الذى أنزل فيه ورفيقتى « دانكا »، فمن أين لهذا الشاب العملاق الواقف أمامى بمعرفة اسمى ؟ أيكون من طرفها ؟ أخاها ، قريبها ، صديقها ؟ وتحسست وجهى بيدىّ الاثنتين تحسبًا للعاقبة التى تُنذر بالوقوع ، ماذا سيحدث إن كان أخاها ؟ أأطلق ساقىّ للريح وأمضى ؟ فلا أحد يعرفنى هنا . وأدرت بصرى فى الزحام أمامى فارتد إلىّ البصر خاسئًا .

عقدت الحيرة لسانى ، فلا أذكر أنى أجبت على سؤاله ، لكنه كان واثقًا، فدس ورقة صغيرة فى يدى ومضى لشأنه .

أفقت من ذهولى ، ورقة مكتوبة ! من يبعث لى رسالة هنا ؟ رفعت الورقة ، قربتها من ناظرى ، التهمتها نظراتى من النهاية قبل البداية ، التقطت أنفاسى أخيرًا وقد طالعت فى أسفلها « المخلصة دانكا » .

أحسست بقليل من الطمأنينة ، ونزعت فتيل الرعب الذى ملأ نفسى للحظات خلت ، ووجدت نفسى أقرأ ، وعاد لبصرى ثباته الذى زاغ منذ حين :

« عزيزى ماجد : أعتذر عن الحضور فى الموعد المحدد لأنى متعبة قليلاً هذا اليوم ، سأحضر غدًا فى نفس الموعد ، لقد أرسلت أخى الأكبر ليحمل اعتذارى إليك . المخلصة دانكا . »

أفقت من ذهولى على ذهول جديد ، أخوها ، إذن صدق حدسى لكنه يحمل اعتذارها عن الحضور والتزامًا بموعد جديد . كيف ! ولم يستطع عقلى أن يستوعب المسألة . أخوها يعرف أنها على موعد مع عابر سبيل لايلبث أن يغادر المدينة إلى غير رجعة ، ولا يعترض ويحضر بنفسه معتذرًا بالنيابة عنها ، ومجددًا الموعد ! أيعقل هذا ؟

وتذكرت عشرات الاشتباكات التى حدثت فى قريتنا على مر الأزمان

وتذكرت بدايات معظمها التى لم تكن أكثر من كلمة غزل ، أو نظرة جانحة اختلسها شاب إلى فتاة ، أما تعمد الحديث وتهيئة اللقاء فذلك عار لا يغسله إلا الدم ، وما كنت أتوقع من أخيها أقل من خنجر يغرز فى الصدر أو رصاصة فى القلب لو حدث هذا فى قريتنا .

مددت يدى أتحسس صدرى ، وأطمئن إلى أن قلبى لم يمسه سوء . أدرت عينى فى المكان باحثًا عن الشاب الأشقر العملاق الذى كان يقف أمامى ، وددت لو أعانقه ، أحييه وأشكره ، لكنه كان قد غاب فى الزحام وابتلعته جموع السابلة ، ولم يعد يبدو منه على البعد سوى قمة رأسه ، هممت أن أناديه ، أن أصرخ بأعلى صوتى ، وعقدت الحيرة لسانى .

فى مساء اليوم التالى كنت وصديقتى « دانكا » نمشى الهوينا على ضفاف نهر « الأودر » الذى يعبر المدينة .

قالت بتودد وهى تشير إلى النهر :

– إنه النيل .

– وتمتمت :

– لو كان النيل حقًا لكان شاهداً على موتى يوم أمس .

وجذبت يدها ومضينا فى اتجاه النهر

الدكتور ذياب

كان مقهى اللوتس الواقع في شارع « ديدوش مراد » بكراسيه وطاولاته التي زحفت على جانب كبير من الرصيف العريض على طريقة المقاهي الباريسية . كان متنفسنا الوحيد في أوقات ما بعد العصر والأمسيات ، عندما نفرغ من أعمالنا ، ولانجد في مساكننا الضيقة التي حصلنا عليها بشق الأنفس وبعد طول انتظار ، مايؤنس وحدتنا ، أو يملأ فراغ أيامنا ، فنلتقي يوميًا على رصيف هذا الشارع النابض بالحياة والحركة ، والذي يمثل مع شارع "العربي بن مهيدي" الذي هو امتداد له بانعطاف بسيط نحو اليسار ، يمثلان معًا قلب مدينة الجزائر وروحها .

كنا نتسلى بالثرثرة في شتى المواضيع ، ونسرح أنظارنا لمتابعة عابري السبيل ، ونطلق العنان لألسنتنا بتعليقات الإعجاب والاستحسان وربما الدعوة للجلوس إن كانت العابرة ذات حُسن وجمال يستحق الحفاوة والترحيب ، ونادراً ما كانت تعليقاتنا تصادف أذانًا صاغية . .

لقد كانت تلك تسليتنا الوحيدة ، فليس في المقاهي هنا نرد ولا دومينو ولا ألعاب ورقية متنوعة مثلما هو الحال في مقاهينا الشرقية . إلى جانب تصفح الصفحة السابعة من جريدة "الشعب" ، الجريدة اليتيمة الناطقة باللغة العربية .

كم مرة هممت أن أقطع الصفحة السابعة لأنها النافذة الضيقة الوحيدة التي تحمل بعض الأخبار العربية والعالمية ، وأترك باقي الجريدة للبائع بعد أن أنقده ثمنها ، لكنني كنت أخشى أن يثور لعدم اهتمامي بالأخبار المحلية ، ويحسب ذلك عليّ موقفًا غير وطني .

كنا عصبة من العاملين الشرقيين فى هذا البلد ، بيننا المدرس والمهندس والطبيب ، وكنا جميعًا نعيش فُرادى ، بعيداً عن زوجاتنا وأولادنا الذين آثرنا لهم السلامة ببقائهم يعيشون فى أوطانهم ، مقدرين صعوبة اندماجهم فى مجتمع غلبت عليه اللغة والثقافة الفرنسية ، وإن كان يحاول جاهداً التخلص من تأثيراتهما ، لكن هذا الانفكاك سيأخذ مداه الزمنى ، ولن يستطيع أبناؤنا التكيف مع مدارس جُل موادها تدرس بالفرنسية .

مضت سنوات على صحبتنا تلك ، حتى صارت جلستنا المسائية واحدة من المعالم الرئيسية لمقهى اللوتس ، لا ننقطع عنه إلا بضعة أسابيع خلال عطلة الصيف ، عندما نعود إلى أوطاننا لنفرغ ما ادخرته جيوبنا وأبداننا خلال عام كامل ، ثم نعاود رحلة النمل ، وجلسات بعد العصر على رصيف الشارع الطويل .

فى بداية عامنا هذا انضم إلى زمرتنا وافد جديد ، إنه الدكتور ذياب ، كان فى مثل سننا ، التماع الشيب فى فوديه ، وبدايات تغضن وجهه تشى بأنه يخطو نحو الأربعين من عمره ، بعد رحلة كفاح شاقة ارتسمت بعض ملامحها على محيّاه ، فكسته مسحة حزن يغلفه بغلاف رقيق من الجد والصرامة المصطنعة ، مع ميل فطرى إلى الصمت العميق .

غادر ذياب بلده صفر اليدين متوجهاً إلى بريطانيا ليواصل دراسته العليا بعد أن حصل على الشهادة الجامعية الأولى بتفوق .

وقد استغرقت رحلة كفاحه للحصول على الماجستير فى بريطانيا ومن بعدها الدكتوراة فى أمريكا بما تخللها من سنوات العمل للإنفاق على دراسته وأبحاثه خمسة عشر عاماً .

وها هو قد حقق حلمه القديم وعاد ليصبح أستاذاً فى إحدى الجامعات العربية .

يومًا بعد يوم صار الدكتور ذياب صديقى ، يختار مقعده فى جلستنا على الرصيف بجوار مقعدى ، ومع أنه كان قليل الكلام إلا أننى كنت أحاول أن أستفزه ليتكلم :

– يا عم نحن لسنا بمستوى الشهادات العليا ، لك الحق فى أن تكلمنا بالقطارة .

– استغفر الله ، أنتم الخير والبركة ونعم الصحاب يا أباعلاء .

– إذن فضفض ، حدثنا شيئًا عن حياتك غير العلمية ، حياتك الخاصة، مشاعرك ، غرامياتك ، زواجك إن حصل .. أنت تعرف كل شيء عنا جميعًا ، أعمار أولادنا وبناتنا ، ثقافة زوجاتنا المتواضعة ، ومواهبهن فى فنون الطبخ ، التى حرمنا منها طويلاً ، فلماذا تكون الصامت الوحيد بيننا؟

– قم لنجلس فى الداخل فى ركن هادئ ، وأحدثك .

تبعت الدكتور ذياب إلى ركن قَصى داخل المقهى وجلسنا متقابلين ، وشجعته على الحديث قائلاً :

– تحدث يا رجل ، إن الصمت يقتل صاحبه ، حدثنا عن مشاهداتك وتجاربك وخبراتك فى بلاد الغرب .

أخذ نفسًا عميقًا كأنما يعد نفسه لحديث طويل يجد حرجًا فى البوح به، والكشف عن مكنونات نفسه وتعرية ماتستره هذه القشرة من المهابة المصطنعة والمظهر الخارجى الأنيق لأستاذ جامعى ، ربما لأول مرة ، وقال :

– يا عزيزى إننى فى مثل سنكم ، وعندما أسمعكم تطيلون الثناء على كفاحى وشهادتى العليا ومركزى الاجتماعى ، وتبالغون فى توقيرى والتأدب فى مخاطبتى ، أطيل أنا أيضًا التفكير فى أحاديثكم عن أولادكم وبناتكم الذين يدرجون فى المرحلة المتوسطة والابتدائية وما دونهما . عن نسائكم الصابرات على بعدكم والقائمات مقام الآباء والأمهات فى رعاية

أبنائكم والحدب عليهم خلال غيابكم الطويل ، وبيوتكم التى عمرتموها بالأهل والنسل والتى تنتظر عودتكم كل صيف أو عودتكم النهائية .

أقارن بين حالكم وحالى أنا الذى ضيّعت هذه السنين من شبابى منكبًا على الدرس والشهادات معرضًا عما سواهما ، ولما حصلت عليها اكتشفت أننى قد فرطت فيما هو أهم منها وأبقى أثرًا .

– ألم تجرب يا دكتور أن تجمع بين الحسنيين ؟ الزواج والدراسة .

– أبدًا ، لقد كانت تتنازع نفسى رغبتان متعارضتان يمزقانها تمزيقًا ، الأولى رغبة جامحة وسهلة التحقيق فى الاندماج فى المجتمع الذى أعيش فيه، والزواج من إحدى بناته ، وكان ذلك الخيار السهل يمنحنى الجنسية الأمريكية ، ويفتح أمامى أبواب الدراسة والعمل على مصاريعها ، وقد اختار معظم زملائى من الدارسين الأجانب هذا الخيار وحققوا نجاحات واسعة .

– وهل اخترت العوم ضد اتجاه التيار يادكتور ذياب ؟

– نعم . لقد كانت تنازعنى رغبتى الثانية ، رغبتى الكابحة لكل اندفاع، فاسأل نفسى : هل أرضى أن ينشأ أولادى متحدثين بلسان أجنبى ؟ ألا أفكر يومًا فى العودة إلى وطنى ؟ هل سيكون لأولادى ولأمهم الأجنبية أى انتماء حقيقى لوطنى ؟ هل سيتحدثون بالإشارة مع جدهم وجدتهم وأعمامهم وأبناء عمومتهم إن عدنا للزيارة ذات يوم . أم أننى سأختار العيش مرغمًا هنا بقية حياتى ؟ لقد كانت فكرة العيش إلى حد الشيخوخة فى مجتمع غير عربى تؤرقنى كثيرًا ، وتقطع الطريق على رغباتى الجامحة ، وتضيع الفرص الكثيرة من بين يدىّ .

إن الذى لم يجرب العيش فى مجتمع لا ينتمى إليه إطلاقًا لا يستطيع أن يتخيل صعوبة الاختيار . إنه الخيار بين أن تعيش السمكة وسط مياه

المحيط العميقة ، أو أن تعوم على شبر ماء داخل طست تحيط بها اليابسة من كل جانب .

هكذا سرقتنى السكين وفرحت بنيل شهادة الدكتوراة ، ونسيت نفسى. فلما تعرفت عليكم هذا العام وشاركتكم جلساتكم وأحاديثكم تذكرت ما كنت ناسيًا ، وانكشف لعينى الجانب الذى أغفلته طويلاً من حياتى ، البيت والزوجة والأولاد . متى سيأتون ويكبرون والأربعون على الأبواب ؟

وصمت الدكتور ذياب وغصة فى حلقه . حاولت أن أخفف عنه وقلت مواسيًا :

– لم تطر الدنيا يا دكتور، مازلت شابًا وسيمًا أنيقًا ، تستطيع أن تعوض ما فات إلى جانب مركزك الاجتماعى المرموق ، ولا تنس أن لكل شيء ثمنه ، هذا الكرسى الجامعى ولقب الأستاذية لهما ضريبتهما أيضًا . ثم إننى أود أن أسألك . هل هنالك أجمل من أن تتجول بنفسك فى أرجاء حقل من الورود ثم تقطف بيدك وردة تختارها ؟ أليس فى مقدورك أن تفعلها اليوم فتختار شريكة من بين طالباتك تعوض مافات ، وتسرع فى اللحاق بالركب ؟

تنهد الدكتور ذياب تنهيدة ألم وحرقة وقال :

– من قال لك أننى لم أحاول ، وأنها لم تكن حلمًا جميلاً يداعب خيالى طيلة سنوات كفاحى ودراستى .

– وماذا كانت النتيجة ؟

– لا داعى لنشر الغسيل كله ، لنترك للقلب شيئًا ولو يسيرًا من الحسرة.

– أستحلفك بالله أن تكمل حديثك بنفس الصدق والصراحة ، وأن

تواصل مشاعر الثقة التى منحتنى إياها لأعيش حكايتك كاملة .

واصل حديثه بسخرية مُرة :

– كانت فى سنتها الجامعية الأخيرة ، لم تكن ذات جمال صارخ ، لكنها بدت لى عاقلة رزينة ، مثقفة وواعية . استلطفتها وماملكتُ نفسى من إرسال نظرة إعجاب تارة وعبارة إطراء تارة أخرى . وكانت تلتقط الإشارة فوراً ترد بمثلها على استحياء . لم يخف ذلك طويلاً على زميلاتها وزملائها ، لحتُ ذلك فى نظراتهم المتبادلة . وشوشاتهم ، وراق لها ذلك وتباهت به بينهم . وتطور الأمر فأصبحت شفيعتهم عندى ، يرسلونها إن رغبوا فى تأجيل اختبار ، أو تليين موقفى المتشدد فى ضرورة الالتزام الدقيق بالحضور للمحاضرة قبل دخولى . وكنت أستقبلها قائلاً :

– أهلاً بالمندوبة السامية .

كانت بسمتها تسبق حديثها ، فلا أملك إلا أن ألبى لها طلبها ولو بعد أخذ ورد .

أوشك العام الدراسى على أن ينقضى وطالبتى الأثيرة يزداد مكانها فى القلب رسوخًا وثباتًا . وكلماتنا القليلة التى تختطفها قبيل المحاضرة أو بعد نهايتها ، أو خلال لقاءات عابرة متعمدة أحيانًا توحى بالتقدم المستمر فى مشاعرنا المتبادلة ، وكنت أؤجل الحديث الجدّى الذى أريده حتى نهاية العام لكى لا أصرفها عن دراستها واستعدادها لامتحانات السنة الأخيرة .

– وماذا بعد يا دكتور ؟

– انقضت الامتحانات وأرسلت فى طلبها إلى مكتبى بواسطة صديقاتها صديقتها الأثيرة التى كنت أظنها كاتمة أسرارها .

– وهل حضرت ؟

– نعم ، حضرت . بُحت لها بكل مشاعرى نحوها ، ورغبتى فى التقدم

لخطبتها .

– وماذا كان ردها ؟

– لم ترد إطلاقًا . لمحتها تنظر إلى فوديّ الأشيبين ، ثم تستأذن في الانصراف لأنها تأخرت عن موعدها مع صديقها في النادى .

وصمت الدكتور ذياب عن الكلام وقد أسند خده بيمناه ، وغمرت محياه سحابة حزن عميق . وكأنى به يتمتم محدثًا نفسه :

– لقد ضاع الحلم الجميل ، ولم يعد في العمر متسع لأحلام جديدة ، لقد نسيت نفسى طويلاً فلما أفقت كان القطار قد مضى .

أأبحث عن واحدة في مثل سنى ؟ متى ستنجب لى أبناء مثل أبنائكم ومتى سيكبرون ؟ حقًا . إن لكل غراس أوانها ، ولن تثمر غراس الصيف لو أخرتها للشتاء .

– هوِّن عليك يا دكتور ، إنك تتصرف وكأنه ليس فى الدنيا غيرها .

– لم يعد لدىّ رغبة فى تكرار التجربة ، وليس أمامى إلا واحد من خيارين ، إما أن أعود من حيث أتيت إلى مهجرى فأستغرق فى حياة عملية منهكة تنسينى تجربتى المُرة ، وإما أن أعود إلى التى انتظرتنى عمرها كله .

– ومن هى يا دكتور ؟ أنت لم تأت على ذكرها فى حديثك .

– إنها ابنة عمى "خضرة" ، فتاة ريفية ذات عينين خضراوين ، ووجه كان يتورد خجلاً كلما وقعت عينى علي عينيها ، أو كلما سمعت أهلى أو أهلها يرددون « خضرة لذياب وذياب لخضرة » .

– وأين هى الآن ؟ وما أخبارها ؟

– يوم غادرت قريتنا لآخر مرة متوجهًا إلى الجامعة كانت "خضرة" ابنة خمسة عشر ربيعًا ، ودعتنى بصمت ، لكننى لمحت الدموع تترقرق من مقليتها وكان ذلك آخر عهدى بها .

- وهل لازالت إلى اليوم بدون زواج ؟

- علمت أنها انتظرتنى طويلاً حتى فاتها قطار الزواج ، وأنها عزفت عنه بعد ذلك .

وأضاف كأنما يحدث نفسه :

- هل تقبل بى ياترى بعد هذا العمر الطويل ؟

عجزت عن التخفيف عن صديقى المحبط ، فخرجت معه من المقهى علّنا نستطيع أن نغير مجرى هذا الحديث المأساوى ، وقلت :

- لننضم إلى شلتنا فى الخارج .

وتبعنى الدكتور ذياب ، وانضممنا إلى رفاقنا ، وواصلنا جلستنا المعتادة على الرصيف واستأنفنا مهمتنا فى متابعة السابلة .

مضت أيامنا بعد ذلك رتيبة على عادتها ، وكانت عطلة الصيف - التى من عادتها أن تفرق شملنا إلى حين - على الأبواب .

عندما استأنفنا جلستنا على رصيف مقهى "اللوتس" فى بداية العام الجديد كانت شلتنا تفتقد أحد أبرز وجوهها وأعزها إلى قلبى ، ذلك هو الدكتور ذياب ، الذى لم نعثر له على أثر فى الجامعة أو فى المدينة .

وما علمنا يقينا هل عاد إلى مهجره من جديد أم عاد إلى عيون خضرة ؟

بوشبكة

قرر خليل السالم أن يغادر هذه البلاد التى أحبها حبًا جمًا ، وتولّه فى خُضرة جبالها وأوديتها ، وصفاء بحرها ، ودفء رمال شواطئها ، حيث كان يمضى صيفه مثل نورس يجرى بين رمال الشاطئ وزبد الماء .

لم يختر لمغادرته أقصر الطرق المؤدية نحو الشرق ، بل اختار أطول الطرق، طريق البحر الذى أحبه إلى حد العشق . بل وتعمد أن يعرج على المدن والمعالم التى رآها من قبل ، والتى لم يرها ، وتوقف مليًا فى كل محطة كأنه يودع هذه الأماكن العزيزة على قلبه الوداع الأخير .

فما الذى سيعود به مرة ثانية ليقف فوق أطلال قلعة بنى حماد ، ويلقى نظرة أخرى على خليج "بجاية" الساحر .

إنه يتعمد الإبطاء فى سيره والتوقف لساعات طويلة ، بل والتجول على القدمين فى شوارع "جيجل" و"سكيكدة" ويبيت ليلته الأخيرة من مغربها فجرها فى الساحة الرئيسية فى وسط "عنابه" (١) داخل سيارته الصغيرة لتى حوّلها إلى مسكن إلى جانب كونها رفيقة سفر عندما نزع المقعد الذى يجاوره ، وطواه فوق المقعد الخلفى ليفترش أرض السيارة فى ساعات نومه واستراحته ، فهو يقدر لهذا السفر الطويل من الجزائر إلى القاهرة مدة لا تقل عن أسبوع . إنه ليس مستعجلاً على شىء ، ولا يريد أن يطوى الأرض طيًا، بل يريد أن يسير متأملاً سائحًا يمعن النظر ، ويلتقط الصور التذكارية ، ويقتنى البطاقات التى تذكره بكل مدينة مرّ بها .

إنه الآن مع شروق الشمس يقف أمام منفذ الحدود فى الطرف الشرقى

---

(١) ما بين الأقواس أسماء مدن فى الجزائر وتونس .

من الجزائر ، ينتظر بداية دوام موظفى الفترة الصباحية فى المركز ، ليحصل على تأشيرة المغادرة النهائية التى اختارها بنفسه جريًا وراء دراهم معدودة يضيفها إلى مرتبه الشهرى فى أى من صحارى المشرق ، ليسد بها الأفواه التى تنتظره كل نهاية شهر . هكذا عوّدها منذ البداية وماكفت عن عادتها تلك أو أقفلت أفواهها رغم مضى السنين الطوال .

ربما كان هو أول عابر يمر بهذا المعبر فى هذا الصباح ، فلم تستغرق إجراءات مغادرته سوى دقائق معدودة .

عندما تهادت عجلات سيارته خارج المعبر داهمه حزن عميق ، وأحس كأنه يسير فى الفراغ أو يهوى فى قرار سحيق . غمره طوفان من الحنين وندم على قرار المغادرة النهائية الذى اتخذه ، وتذكر سنواته الأربع التى أمضاها هنا بأيامها ولياليها ، بكل تفاصيلها .

ولاح له طيف "نورة" حورية تخرج من موج البحر وتتمدد أمام ناظريه على رمال شاطئ "سيدى فرج" فى عينيها زرقة مياه البحر ، وفى نظرتها العاتبة عمق هذا البحر .

كانا يقفزان فوق الرمال آنًا ويغوصان فى مياه البحر آنًا آخر ، مثل نورسين بحريين لا يكلان من مداعبة الموج المتتابع حتى يشتبك منقريهما معًا وتغيبهما نشوة راعشة يغسلهما بعدها زبد البحر الذى يندفع عنيفًا فيغمر الجسدين اللذين نصفهما فى ماء البحر ونصفهما على رمال الشاطئ .

هل كان فى وسعه أن يخبرها أنه اختار الرحيل النهائى ؟ وبماذا كان سيبرر رحيله ؟ بالحاجة لمزيد من النقود لإشباع الأفواه النهمة ؟ أم يتذرع بعجزها عن إقناع أهلها بفكرة الزواج من شرقى ؟ ستقول له :

- أنت لم تبذل من المحاولات ما يستحقه هذا الأمل المشترك ، لقد تراجعت أمام الصدمة الأولى . ومهما تكن مبرراتك فهل كان الهروب

خفية عني هو الحل ؟

من قال لك أنني لم أكن مستعدة للرحيل معك لو أظهرت تعلقًا وتصميمًا على الظفر بي ؟

ـ كيف سيكون رد فعلها عندما تكتشف أنني قد رحلت عن دنياها إلى الأبد دونما كلمة وداع . هل ستقدر موقفي ؟ وتفهم أنني ضحيت من أجلها ، وما ارتضيت لها أن تربط مصيرها بطائر مهاجر ، وأن ترحل إلى المجهول رغمًا عن إرادة والديها اللذين لا يطيقان صبرًا على بعادها الطويل . وأن جرحًا يلتئم بعد حين أرحم لها من جرح نازف أبدًا بالغربة والحنين إلى الأهل والوطن ، هذا إذا لم ينقلب ندمًا بعد فوات الأوان .

كانت أسراب اليمام والحجل تنتشر فى الفضاء مع بداية نهار جديد ، وبعض الأرانب البرية تقفز هنا وهناك على جانبى الطريق فى هذه الغابة الفاصلة بين المعبرين والتى يبلغ عرضها بضعة كيلو مترات ، تركت هكذا عريضة منذ أيام الاحتلال الفرنسى لتسهل كشف المتسللين من المجاهدين عبر الحدود إبان عهد الثورة الجزائرية .

كنت أول من وصل إلى مركز الحدود فى الجانب التونسى فى "طبرقة" فى ذلك الصباح ، وتقدمت بجواز سفرى نحو شباك القادمين . ألقى موظف الجوازات نظرة على تأشيرة الدخول ثم قطب جبينه وأعاد الجواز إلىّ وهو يقول :

ـ دخولك من "بوشبكة" وليس من هنا .

ـ لكن موظف التأشيرات فى السفارة أكد لى أنه يمكننى الدخول من أى معبر مادمت قد حصلت على التأشيرة ، فقد راجعته مرتين للتأكد ، ولولا ذلك ماجئت من هنا .

ـ لا دخل لى . لقد سجلوا على تأشيرتك : منفذ العبور "بوشبكة"

وعليك العودة إليها .

- يا سيدى ، "الطريق طويل يبلغ عدة مئات من الكيلو مترات ، وقد غادرت الجزائر نهائيًا ، وقد يرفضون دخولى الآن ويطالبوننى بتأشيرة دخول، فمن أين أحصل عليها ؟

- إنها ليست غلطتى ، ولاداعى لإضاعة وقتنا فى كلامك الكثير .

تناولت جواز سفرى وابتعدت قليلاً إلى الوراء وأنا أحس أن الدنيا تدور بى دورانًا عنيفًا ، وصداع يكاد أن يفجر رأسى تفجيراً ، وجلست على الأرض وقد أسندت ظهرى إلى جذع شجرة محاولاً أن أستجمع قواى وأفكر فى طريقة للخلاص من هذا المأزق .

مضى ما يزيد على ساعة من الوقت وأنا فى إطراقتى تحت ظلال شجرة الصنوبر الضخمة .

مرّ أمامى كثير من العابرين والعابرات ، كلهم من ذوى العيون الزرقاء والشعور الصفراء ، وأوروبيون من مختلف الجنسيات عبروا الحدود بيسر وسهولة وإجراءات لم تستغرق سوى لحظات لكل منهم . ولبثت وحدى مطرقًا أسند خدى بيمناى وظهرى إلى جذع شجرة الصنوبر العملاقة ، مقابلاً لشباك الجوازات ، آملاً أن يرق قلب المأمور الحالى فيريحنى من عناء مسيرة طولها مئات الأميال جنوبًا نحو المعبر الصحراوى فى "بوشبكة" الذى خُصص لأبناء الصحراء أمثالى ، بينما خُصص هذا المعبر فى هذه المنطقة الخضراء ليتناسب مع رقة السائحين من أبناء الشمال .

وتدافعت أمام ناظرى مشاهد آلاف المجاهدين الذين كانوا يمرون من هنا ليلاً ونهاراً ذاهبين آيبين ، دونما استئذان أو تأشيرات رغم الحراسات المشددة والكلاب البوليسية ، والأسلاك المكهربة التى ابتدعتها فرنسا وأحاطت بها نفسها لتمنع تسللهم ، صحيح أن بعضهم كان يستشهد هنا مبكرًا ،

وآخرون يسقطون جرحى أو يقعون أسرى ، لكن غالبيتهم كانت تمر من هنا أو إلى الجنوب قليلاً فى ناحية "ساقية سيدى يوسف" أفواجًا متتابعة مثل موج البحر ، ملتحقة بجبهة التحرير الوطنى ، معتصمة مثل النسور بقمم "جبال الأوراس" . كلهم مروا من أمامى وخلفونى وحيداً عاجزاً عن العبور.

غاب خليل السالم عما حوله لحظات وارتسمت فى مخيلته صورة فتى صغير فى بداية العقد الثانى من عمره ، يعيش فى قرية مجهولة فى أحد أقطار المشرق العربى ، ينظم أبياتًا من شعر ركيك لأول مرة فى حياته ويقدمها لمُدرسه ، أبيات تمجد بطولة "جميلة بوحريد" وأخرى تلهج بصمود "بنزرت" وجلاء المستعمرين عنها . فيربت الأستاذ على ظهره مثنياً ومشجعًا ، ويصحح له بعض الأخطاء النحوية والعروضية . ثم يجد نفسه يقف ساعات طوال فى طابور طويل ليقدم طلب التأشيرة ، وينتظر أسبوعين كاملين لينالها ، ثم إنه يعود مرتين إلى الشباك مستفسراً عن إمكانية الدخول من "طبرقة" إذا كان منفذ العبور المسجل غيرها ، فيؤكد له الموظف أن ذلك ممكن .

ما كان يريد شيئًا من إطالة طريقه سوى أن يعرج على "بنزرت" التى تعلق بها قلبه صغيراً فغنى لها أولى أغنياته ، فيقف بها وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه .

ويمر "بالمرسى" و"حلق الواد" ويعبر بحر الزيتون الملتف حول "خليج قابس" ، لتظل هذه المشاهد حية فى ذاكرته .

لم يكن خليل السالم قد شاهد أو سمع بفيلم "الحدود" لدريد لحام ، وربما لم يكن هذا الفيلم قد أنتج يومها ، وإلا لوجد لنفسه عزاء فى بطل ذلك الفيلم ، وتخيل نفسه نجمًا سينمائيًا ، أو لأعانه ذلك على أن يجترح طريقة للعيش تمكنه من البقاء عالقًا بين شرقستان وغربستان .

حتى مخيم "مساعد" على الحدود الليبية المصرية للمطرودين من ليبيا للعودة قسراً إلى فلسطين ، كان تجربة حديثة جداً . فقد كانت تجربة خليل السالم الذى علق بين الحدين سابقة لغيرها من التجارب التى اشتهر أمرها .

ارتفعت الشمس وتبخرت معها آماله فى أن يرق لحاله أحد من موظفى معبر الحدود ، ولم يجد أمامه ملاذاً سوى العودة من حيث أتى . واستدار بسيارته بطيئًا مهمومًا يفكر فى الموقف المقبل :

ـ ماذا لو رفضوا عودته ليعبر متوجهًا جنوبًا إلى «بوشبكة» وقالوا له :

ـ لابد لدخولك من تأشيرة . ومن أين يحصل على التأشيرة التى لاتمنح إلا من سفارة فى عاصمة ، وأنى له الوصول إلى عاصمة وهو عالق بين الحدين .

وصل إلى المركز الذى غادره من حوالى ساعتين ، وتقدم يائساً يجر خطاه نحو الموظف الذى ختم له تأشيرة الخروج . وعلى عكس ما اعتاده وما توقعه من جلافة الاستقبال ورفض الدخول ، فقد خيّب الموظف توقعاته هذه المرة، وقابله بابتسامة ساخرة ، كأنه بطول خبرته كان ينتظر عودته ، ويعلم أن هذا المعبر مخصص لأصحابه فقط . وقبل أن يتكلم شارحًا الموقف بدأه الموظف قائلاً :

ـ ردوك إلى بوشبكة ؟ أليس كذلك ؟

ـ نعم . قالها خليل السالم وهو يكاد ينفجر غيظًا وهمًا .

ـ الله غالب ، ربما تصل مع الغروب . قال الموظف وهو يتناول جواز سفره ويلغى ختم المغادرة .

انزاح جزء من الغمة عن صدره بالسماح له بالدخول . وتذكر أنه لم يترك معه شيئًا من العملة المحلية وهو يغادر . فكيف سيتدبر أمره بقية هذا النهار . طمأن نفسه إلى أن خزان الوقود فى السيارة ممتلئ وأنه يكفى

لإيصاله إلى نقطة الحدود الجديدة إذا سارت الأمور سيراً طبيعيًا ، ورأى أنه لا رغبة لديه فى طعام أو شراب بقية هذا النهار . انطلق بسيارته جنوبًا يصعد جبلاً ويهبط واديًا ، مرورًا بمدينة ، "سوق أهراس" وختامًا بمدينة "تبسة" . لكنه لم يعد يتأمل الأماكن التى يمر بها ، وما عاد يشعر بالدفء والحنين كلما مرّ على وهدة أو ربوة من الأرض .

كانت الشمس قد مالت للمغيب عندما أنهى خليل إجراءات دخوله فى معبر "بوشبكة" الصحراوى فى جنوب تونس . بعد أن اجتاز المعبر بأمتار قليلة كان هناك شاب وشابة يحمل كل منهما حقيبة على ظهره وقد وقفا على قارعة الطريق يشيران بإبهاميهما إلى الأعلى ، علامة الإركاب المجانى التى تشاهدها كثيراً على الطرقات فى بلاد الغرب Auto stop توقف خليل بسيارته أمامهما وسألهما :

– إلى أين ؟

– إلى أول مدينة تونسية . فتحا الباب وصعدا إلى المقعد الخلفى وراءه . كانا فرنسيين .

سألاه وقد لحا عليه علامات التعب والإعياء :

– هل سافرت من الجزائر العاصمة إلى هنا مباشرة دون توقف ؟

– لا . وحكى لهما حكاية إعادته من "طبرقة" هذا الصباح .

ارتسمت الدهشة والعجب على وجهيهما وهما يطالعان فى بعضهما بعضًا ويسألان خليلاً :

– هل أنت عربى ؟

– نعم . وأنتما هل تأشيرتكما إلى "بوشبكة" فاضطررتما للقدوم إلى هنا ؟

لم يجيبا بشىء بل ازدادا استغرابًا وحرجًا وكأنهما لا يرغبان فى البوح

عن منفذ العبور المحدد لهما . وأردف خليل قائلاً :

– ارتبت فى أمـرهمـا ،ولعـبت الوسـاس فى رأسى ونـدمت على أننى أركبتهما معى ، فقد يكونان متسللين بطريقة غير شرعية ، وماذا سيكون موقفى لو أوقفتنا دورية تفتيش واكتشفت أنهما بدون أوراق رسمية ، ومسئوليتى عن حملهما ونقلهما عبر الحدود . مضيت بعيداً مع هواجسى إلى الحد الذى قررت فيه أن أتأكد من تأشيرتيهما أو أنزلهما على قارعة الطريق فى هذا المكان الصحراوى المنقطع وقد بدأ ظلام الليل يلف الأرض شيئًا فشيئًا . وبادرتهما من جديد وأنا أهدئ من سرعة سيارتى :

– لم تخبرانى عن تأشيرتكما ، أى معبر حدد لكما ؟

وكأنما فطنا لشكوكى وخشيتى من حمل أشخاص يعبرون الحدود بصفة غير شرعية ، أجابنى الشاب :

– لقد خجلنا أن نجيبك عندما سألتنا فى المرة الأولى ، خجلنا أن نقول لك أننا لا نحتاج لتأشيرة دخول ولانحمل جوازات سفر ، وأننا ندخل بالبطاقة الشخصية فقط بينما تواجه كل هذه التعقيدات ! خشينا أن يجرحك جوابنا فآثرنا الصمت ، ولكنك أرغمتنا على الجواب بمعاودتك السؤال .

وعلى أى فنحن آسفون لما أصابك هذا النهار وآسفون لما أبلغناك به من تسهيلات دخولنا وخروجنا .

لزم خليل الصمت قرابة ساعة أخرى من الزمن هى مدة المسافة المتبقية للوصول إلى مدينة "قفصة" أول مدينة تونسية .

أوقف سيارته فى منتصف البلدة ، ودّعه مرافقاه الفرنسيان وشكراه على الإركاب وأسفا لحاله ، ولما أخبراه به من معلومات زادته انفعالاً وتوترًا فوق ما قاساه فى هذا اليوم الذى كان أطول يوم فى حياته ، وتمنيا له سفرًا

سعيداً، وحمّلاه تحية خاصة إلى الأهرامات . نزل من سيارته يجر خطاه باحثًا عن أول فندق يريح فيه بدنه من وعثاء السفر المضنى ، ومما كابده من عناء منذ فجر هذا اليوم .

ألقى بنفسه على أول سرير فى أول غرفة شاغرة ، ولم يتذكر أنه لم يذق طعامًا طيلة هذا النهار . لقد هدّه التعب وغط فى نوم عميق ، واختلطت أحلامه الجميلة بكوابيس مفزعة .

رأى "خليل السالم" نفسه فى المنام يجلس على كرسى خشبى صغير فى مقهى قريته البعيدة فى أقاصى المشرق يستمع إلى أغنية تنبعث من مذياع ضخم بحجم الصندوق جاثم فى الركن الشمالى الغربى للمقهى فيردد معها منتشيًا :

– "بساط الريح يابوالجناحين ، مراكش فين وتونس فين"

ثم إنه يجد نفسه وقد تمدد فوق بساط الريح الذى حلق به عاليًا عاليًا ، حتى لم يعد يرى شيئًا على الأرض . يتنازعه الخوف من أن يسقط من هذا العلو الشاهق ، والخوف من أن تضيع عليه الفرصة فلا يرى غزلان "المرسى وحلق الواد" . ومد رأسه على طرف البساط محاولاً أن يلمح شيئًا ، وما شعر إلا وثقله يغلبه على حافة البساط فيهوى من علٍ ليرتطم بالأرض مهشماً .

هبّ من نومه فزعًا ليجد نفسه ملقى على الأرض قد سقط عن سريره .

غرناطة

إنها المرة الأولى التى تطأ فيها قدماه تراب غرناطة ، بل ليس قدماه بعد ، إنها إطارات سيارته التى وطئت ثرى الحلم القديم الذى تعلقت به نفسه منذ الصغر .

لا يدرى لماذا تتعلق روحه بغرناطة من بين سائر المدن الأندلسية الآفلة ، تماماً مثلما يتعلق قلبه بيافا من بين سائر مدن فلسطين التى لم يرها أبداً . إنه يحن إلى يافا التى لم ترها عيناه أكثر من حنينه إلى قريته الجبلية الوادعة الحالمة التى أمضى فيها سنوات طفولته وصباه ، لا يدرى لذلك سبباً ، فالقلب وما يهوى .

إن غرناطة حلمه البعيد ، ويافا حلمه القريب ، الذى هو على مرمى حجر منه ، لكنه اليوم يقف وجهاً لوجه أمام حلمه البعيد قبل القريب .

يبحث عن أول ساحة فى مدخل المدينة ليوقف فيها سيارته ، ويتركها هناك ، إنه يفضل السير على الأقدام ، خاصة فى المدن التي يجهل معالمها ، ليستطيع التأمل كما يريد ، والتوقف متى يشاء ، وليجنب نفسه الأخطاء المرورية وتبعاتها .

لا متعة تضاهى السير على قدميك في مدينة تدخلها لأول مرة فكيف إذا كانت غرناطة ؟

لاحت على يسار الطريق تلك الساحة الأنيقة الواسعة ، يمم وجه سيارته نحوها ، يبحث عن مكان مناسب مواجه للشارع ، بدا له مأموناً وبارزاً لا يضل عنه عند عودته . أوقف سيارته وهمّ بالنزول ، نظر إلى اللافتة التى تحمل اسم الساحة ليسجلها فى مفكرته خشية نسيان اسمها وإضاعة مكان

السيارة . فاجأه الاسم ، خاطب صاحب مبتهجًا :

– انظر يا كمال ، لقد بدأ التعارف ، إنها ساحة عبّاد .

ترى أى أجدادنا "العبابيد" هذا الذى ينتظرنا هنا فى هذا المساء ؟ لقد حسبت عباداً ليس هنا ، فقد ظننته هناك فى "إشبيليه" يتفيأ فى ظلال برج "الجيرالدا" على ضفاف الوادى الكبير ساحة عبّاد أول ماوطئته أقدامنا فى غرناطة ، أنا وصديقى كمال تركنا أمتعتنا فى السيارة بعد أن أخذنا ما خف وزنه منها وما يكفينا لقضاء ليلتنا الأولى .

كان همنا الأول هو البحث عن فندق نأوى إليه بقية هذا المساء وهذه الليلة ، ونترك التعرف والتجوال لصبيحة الغد .

لم يطل بنا البحث فقد عثرنا على الفندق المنشود ذى النجمات الثلاث متوسط الحال ، مثلما اعتدنا فى كل مدينة حللنا بها فى جولتنا الصيفية التى بدأناها منذ قرابة شهر .

كان فندقنا يقع فى قلب المدينة ، ولغرفتنا فى الطابق الثالث شرفة جنوبية واسعة تطل على الشارع الرئيسى .

لم آخذ سوى قسط يسير من الراحة . ما إن غربت الشمس حتى هبطت درجات السلم تاركًا صديقى يغط فى نوم عميق ، يدفعنى شوق عارم للقاء غرناطة ، شوارعها ، بيوتها ، أهلها ، كأننى مسافر عاد إلى مسقط رأسه بعد طول غياب .

تعبت من السير والتأمل والتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، أحدق فى كل صغيرة وكبيرة فى هذه المدينة التى هامت بها روحى قبل أن أراها ، جلست على مقعد فى مقهى على رصيف الشارع ، ورحت أتأمل فى من حولى فى المارة فأزداد عجبًا :

– هذه المرأة البدينة التى تعبر الطريق وقد تلفعت بمعطفها الأسود

الطويل الذى يصل إلى منتصف الساقين ، لقد نسيت منديلها ، لو أنها مدت يدها إلى جيب معطفها فأخرجت منديلها الأبيض أو الأسود ووضعته على رأسها لحسبتها تسير فى أحد شوارع القدس العتيقة ، أو فى سوق "الحميدية" فى وسط دمشق .

– وهذا الرجل الذى يجلس أمامى ، يطالع جريدة المساء بشاربيه الأسودين الكثيفين ووجهه الأسمر المستدير ، ألا يشبه جارنا أبو العبد ؟

– وهذا النادل القصير القامة ، الضئيل الجسم ، كأنه المكوك فى ذهابه وإيابه ، إنه لايختلف فى شىء عن "ماهر" ابن صاحب المقهى الوحيد فى قريتنا ، والذى يعمل نادلاً أيضًا فى المساء وفى أيام العطل .

– ترى من يكون هؤلاء الجالسون جميعًا ؟ أليسوا بقية أهله الذين غادروا هذا المكان منذ مدة وجيزة . قبل خمسمائة عام فقط . وقد ذهلوا حتى عن أبنائهم وبناتهم فخلفوهم وراءهم ، ومضوا هائمين على وجوههم، ابتلعهم البحر ، وألقى ببعضهم على الشواطئ الجنوبية البعيدة ، وكبر هؤلاء الأيتام هنا ، وضيّعوا كبارا لسان من ضيّعهم صغارا ، لو أنهم استعادوا ألسنة أجدادهم للحظات فقط لحسبت نفسك فى ساحة "المرجة" فى دمشق .

– والفلاحون الذين مررنا بهم ظهيرة هذا اليوم وقد قبض كل منهم على يد محراثه الخشبى يسوق أمامه زوجين من الثيران . لو أن أحدهم فتش مليًا فى زوايا بيته فعثر على "قنباز" جده أو سرواله الأسود الفضفاض ، فارتداه وصاح بأعلى صوته "أووف . . ." وانطلق من حنجرته فجأة موّال "عتابا أوميجنا" لحسبت نفسك فى ضيعة من الربوع الشامية .

انتشلنى من أحلام يقظتى هجوم الظلام وانصراف معظم الجالسين على المقهى ، وخشيتى أن أكون قد تأخرت على صاحبى قليلاً .

نهضت من مكانى وعدت أدراجى نحو الفندق ، وجدت صديقى لايزال غارقًا فى نومه فنمت .

نهضت فى صباح اليوم التالى مبكرًا مع شروق الشمس ، انسللت بخطوات هادئة نحو الشرفة ، أمتع ناظرى بمرآى غرناطة عند الشروق . كانت الخضرة تمتد أمام عينىّ على مد البصر ، وألق ينسكب تحت أشعة الشمس من قمم "سيرا نيفادا" البعيدة ، أوجبال "البشارات" كما كان يسميها أجدادنا . وقد عمم الثلج هامتها فى وسط الصيف ، والمدينة تتثاءب وتصحو ببطء من نومها الحالم فى حضن السهل والجبل .

لم أطق صبراً حتى يستقيظ صاحبى ونبدأ الجولة سويًا ، قلت لنفسى :

– أقوم بجولة استطلاعية بمفردى ، أتعرف على المعالم الرئيسية فأكون دليله فى جولتنا الثانية .

قادتنى قدماى تلقائيًا دونما سؤال إلى حيث يتجه كل زائر لغرناطة ، فاللافتات فى كل شارع وعند كل تقاطع تشير إلى مكان واحد "الحمراء" و"جنة العريف" . سرت مع السائرين ، ولجت بوابة القصر والجنة وما كان تشوقى للقائهما كبيراً مثل تشوقى للمدينة ذاتها ، أحيائها القديمة ، قصبتها ، قلبها النابض فى حى "البيّازين" .

لكننى بدأت بما يبدأ به الزائرون جميعًا ، بقصر الحمراء وقاعاته الرائعة ، التقطت صوراً للذكرى فى بهو الأسود ، تأملت الزخارف والمنمنمات الرائعة فى كل زوايا القصر ، وتقرت يداى بلمس حروف العبارة الموحية التى تفشت فى كل جانب من جوانبه "لاغالب إلا الله" .

لاحظ بعض السائحين شغفى وتحديقى فى حروف العبارة ، ففهموا أننى من بقية أولئك القوم الذين كانوا هنا يومًا ورحلوا .

مضيت مع جموع الزائرين واستمعت إلى دليل يشرح لهم عن المكان ،

حتى إذا وصلنا إلى حجرات حريم السلطان قال :

– هنا كانت حجرات الحريم ، وهنا كان يقف المغنى الأعمى ليطرب الحريم ، كان من الضرورى أن يكون أعمى حتى تنعم الحريم بالطرب لصوته، ولاينعم برؤيتهن – لو لم يكن أعمى بطبيعته لفقؤوا عينيه .

اقشعرت الأبدان لسماع كلمة فقء العينين ، وصرختُ مستنكرًا :

– هذه فرية وكذبة كبيرة ، لكن صوتى ضاع بين الجموع .

انفصلت عن الفوج السياحى وتحولت بمفردى هذه المرة إلى "جنة العريف" فلا أريد سماع تشويهات أخرى . تجولت فى أرجاء هذه "الحدائق الغناء" البديعة الصنع . متعت نفسى بمناظر ورودها ورياحينها ونوافيرها وقنواتها الخفية المتقنة الصنع .

غادرت قصر الحمراء وجنة العريف ميممًا وجهى نحو بغيتى الأصيلة ، قلب المدينة ، أزقتها ، حواريها ، سرت على غير هدى ، أوغلت فى المسير، حتى وجدت ضالتى أخيرًا . إننى أقف أمام لافتة تحمل اسم "البيّازين" .

التقطت نفسًا عميقًا ، أريد أن أملأ صدرى من هواء حى "البيّازين" الذى حلمت به كثيرًا ، وأبطأت سيرى استعدادًا لتأمل كل شبر وتمعنه مليًا، حدقت فى أرض الأزقة وفى واجهات البيوت العتيقة التى تزين شرفاتها وأسوارها الأوانى الفخارية أو المعدنية المزدانة بالقرنفل والياسمين وألوان الورود . وإذا ما أمعنت النظر من فرجة واحد من هذه الأبواب ، طالعتك باحة واسعة فى مدخل المنزل وقد توسطتها بركة ماء بنافورتها التى لاتكف عن الخرير ، وقد ظللت الساحة عريشة من أشجار العنب أو الياسمين . أذهلنى ما رأيت وما حسبت نفسى إلا فى حى من أحياء دمشق القديمة .

أيعقل أن تكون هذه البيوت عمرها خمسمائة سنة ولازالت على

حالها؟ لم يبق إلا أن أتفرس فى أسماء أصحابها ، فلعلى أعثر على اسم أعرف صاحبه . دققت كثيراً فى الأسماء المدونة على مداخل المنازل فما وجدت اسمًا أعرفه ، طال بى التدقيق والتمحيص حتى نسيت نفسى ومضيت بعيداً فى أعماق الحى .

وهناك عند سفح الجبل وحيث يتفرع الزقاق ذات اليمين وذات الشمال ، وقد احترت أى السبيلين أسلك ، فوقفت فى الوسط متفرسًا فى واجهة البيت الأبيض الذى يفصل بين مدخلى الحارتين وهتفت :

– إنه هو ، لقد وجدته أخيراً ، إنه البيت الذى طال بحثى عنه لقد نقشت حروف الاسم نقشًا بخط مغربى ، "كرم بن أمية" وتحتها بحروف إسبانية Carmen Bin Omaiah كان البيت مقفلاً منذ أمد بعيد فيما يبدو على هيئته ، وفهمت عندها لماذا يكثر اسم "كارمن" بين الفتيات الإسبانيات ، إنه الاسم العربى كرم مع تحريف بسيط .

أطلت الوقوف بالمكان والتحديق فى الاسم ، والتقطت له صورة لازلت أحتفظ بها بعد قرابة ربع قرن ضمن أثمن مقتنياتى .

أحسست كأننى قد وجدت ضالتى ، ولقيت غرناطة التى جئت أبحث عنها ، عدت أدراجى إلى الفندق ، وجدت صديقى منتظراً وقد استطال غيبتى ، حدثته طويلاً عن الناس والأماكن التى لقيتها وعرفت الكثير منها ولم يعرفنى منها أحد .


وسيم

كان وسيم اسمًا على غير مسمى ، أسود البشرة ، منتفخ الشفتين ، مجعد الشعر ، قصير القامة . كانت خشونة يديه وتعليقاته السوقية وارتفاع نبرة صوته ، تشي بأنه ليس من أبناء مهنتنا نحن جماعة المدرسين المنتمين إلى عدد من الأقطار العربية والذين يكونون مجتمعًا واحداً متآلفًا فى هذه البلدة النائية فى قلب الصحراء الكبرى .

رغم أن "وسيم" كان يمثل حالة نادرة بيننا إلا أنه كان يبدو مرتاح البال، منشرح الصدر ، يسير فى الشارع بخطوات واثقة ويميل رأسه قليلاً أثناء تطلعه إلى واجهة المحلات التجارية القليلة فى وسط البلدة ، بل ويرسم ابتسامة على شفتيه الغليظتين وهو يحادث أحد المارة .

ومبعث سروره أنه ينتمى بلونه إلى الغالبية العظمى من سكان هذه البلدة . .

مجتمع هذه البلدة ينقسم إلى فئات ثلاث : أولها ذات لون تمتزج سمرته الخفيفة ببياض ، تزعم أنها عربية عريقة النسب جاءت من الشمال وتحتكر مهنة التجارة فى البلدة ، وإليها ينتمى معظم ملاك البيوت وكبار الموظفين فى الدوائر الحكومية القليلة الموجودة فى هذه البلدة .

أما الفئة الثانية وهم أطول قامات وأكثر سمرة من الفئة الأولى ، لا تستطيع أن تميز ملامح وجوههم ، فأنت لاتشاهد سوى عيونهم ، فهم لايميطون اللثام أبداً عن وجوههم ، وهم أكثر عدداً من الفئة الأولى وأوسع انتشاراً فى القرى القريبة ، بل وفى أعماق الصحراء النائية ، إنهم أبناء هذه الصحراء وشيوخها التقليديون ، إنهم الطوارق الذين بدأ نجمهم يأفل

ونفوذهم القبلي يتضاءل أمام زحف مؤسسات الدولة .

أما الفئة الثالثة وهى الأكثر عدداً ، والتى يحس زميلنا وسيم بنشوة الانتماء إليها ، وهى تمثل غالبية الفلاحين والعمال وأصحاب المهن البسيطة والمتوسطة ، ونادراً ما يقفز واحد من أبنائها إلى مرتبة أرفع من ذلك ، ويصل إلى وظيفة مرموقة ، إنهم "العبيد" سابقًا الذين تحرر آباؤهم من نير العبودية، وهم مميزون لاتخطئهم العين ، يعرفون بسيماهم التى هى شدة السواد ، والشفاة الغليظة والمزاج العكر المتقلب العنيد ، الذى هو مزيج من الحرية الطارئة والعبودية المتوارثة . لا يرد ذكر أحدهم على لسان شخص من الفئتين السابقتين إلا قال :

ـ فلان العبد ، ثم يردفها بعبارة "كلنا عبيد الله" .

انقضى العام الدراسى كله ووسيم قليل الاختلاط بنا ، خاصة نحن القلة المتزوجة التى تصطحب عائلاتها من المدرسين ، فقد كانت صِلاتنا مقتصرة على بعضنا البعض ، لكنه كان يكن لى مودة خاصة ، تظهر فى تحيته الحارة كلما قابلنى ، وفى إفاضته بالشكوى من زميله محمود الذى يشاطره السكن .

ـ تصور يا أباهانى ، إنه يرفض أكل فراخ الحمام التى يحضرها لنا الطلبة إن كان ريشها أسود !

قلت ممازحًا لوسيم :

ـ إن هذا فى صالحك فمعظم الحمام ريشه أسود .

ولمت محمود على مثل هذه الاستفزازات التى تجرح شعور زميله ، فالناس سواسية ولافضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

وجاءت العطلة الصيفية وهى موسم التزاوج بالنسبة للعزاب من المدرسين، وسائر العاملين هنا يسافرون إلى موطنهم فُرادى ويعودون أزواجًا

فى نهاية العطلة . مثلهم سافر وسيم فرداً وعاد زوجًا وأى زوج !

لم يكن بالبلدة فنادق يأوى إليها النازلون الجدد ، ولم يكن قد أعدّ منزلاً مستقلاً قبل سفره ، ربما لأنه لم يكن واثقًا من تمام مشروعه .

منزل العزوبية السابق حالته مزرية ، ربما خشى على عروسه أن تولى هاربة لو طالعت هيئته الكئيبة ، وماذا لو خرجت إليها واحدة من العقارب التى ألفنا العيش معها ، وقرر أن ينزل عند صاحبه أبى هانى ريثما يتدبر أمره .

الأمر كله مثير للنفس ، فبيت الصديق مكون من غرفتين مثل كل البيوت هنا ، واحدة للنوم وأخرى للمعيشة ، ولا إمكانية لحجب العروس وجمالها الأخاذ عن نظراتهم . ستظل بينهم طوال النهار ، يتأملونها ، يحادثونها على انفراد ، وسيدهش حقًا حين تلمح عيناه الفرق الشاسع بين شدة بياضها وشدة سوادى ، بين صغر سنها وكبر سنى ، بين بسمتها الساحرة وتقطيبة جبينى ، بين أسنانها المنضدة كعقد من اللؤلؤ ، وبين أسنانى الصفراء التى زادها التدخين صفرة ورائحة كريهة ، بين شعرها الأسود الفاحم المسترسل على كتفيها وبين شعرى الأجعد الملتصق بفروة رأسى فلا يبرحها للأعلى .

قلّب الأمر من كافة وجوهه ، وحزم أمره ، وقال لنفسه :

– وليكن ، إلى متى سأخفيها عنهم ؟ إن البلدة قرية صغيرة ، لا يمكنك أن تخفى فيها دجاجة عن أعين الناس . فكيف بامرأة ، زوجة جديدة . إن كل العيون فى البلدة تنتظر نهاية موسم الصيف وعودة المدرسين لتطالع القادمات الجديدات من المدرسات أو زوجات المدرسين وتعقد المقارنات بين القديم منهن والجديد .

ثم إننى بالضرورة سأقتحم مجتمع المتأهلين ، وأتبادل الزيارات معهم

كما يفعلون ، وأبوهانى سيكون نافذتى إلى هذا المجتمع ، ليراها قبل غيره ، إنه عاقل رزين ، وسيخفف من هول المفاجأة واتساع الفارق بيننا .

وقرع الباب الخشبى العتيق ، عندما فتح أبوهانى الباب رأى وسيم يقف أمامه وبجانبه فتاة لاتكاد تبلغ السادسة عشرة ، شديدة بياض الوجه ، شديدة سواد العينين مع غمازتين خفيفتين على الوجنتين تضفى عليها تألقًا وبهاءً .

- تفضلا ، أهلا وسهلاً ، مبارك ، الحمد لله على السلامة .

تكلم أبوهانى دفعة واحدة وبلع ريقه وهو يتقدمهما موسعًا لهما الطريق. كان لايصدق عينيه ، أهو فى حلم ؟

- وسيم يتزوج كل هذا الجمال ، كيف ؟ وهل عميت أبصار أهلها ؟

- وهى ، ماالذى أعجبها فيه حتى ترضى به ؟ هل فاتها قطار الزواج لترضى بأول طارق ؟ إنها لاتزال طفلة رقيقة بريئة .

- إنها زوجتى (داليا) . قال وسيم مزهواً ربما لأول مرة فى حياته فلعلها الصفقة الأولى الرابحة التى عقدها ، لقد انتصر على لونه حين تزوج أكثر النساء بياضًا .

تبادلتْ نظرات العجب والدهشة مع زوجتى ورمقت العروس بنظرة حانقة وقلت فى نفسى :

- قبحك الله - ولكن الله كان قد جمّلها وقُضى الأمر - ورحت أدندن بصوت خفى أغنية قديمة : "الغراب يا وقعة سودة ، زوجوه أحلى يمامة ، هىّ كانت فين عيونك يايمامة" وخلال النهار بدأ وقع المفاجأة يخف تدريجيًا .

فى صباح اليوم التالى غادرنا وسيم متوجهًا إلى المدينة لشراء مستلزمات لعشه الجديد ، وبقيت عروسه عندنا . كانت دمثة الخلق ، حلوة الحديث ،

طيبة ساذجة ، سمعتها تسأل زوجتى :

– هل تستمر المرأة فى الطول بعد الزواج ؟

خشيت أن يكون زواجها صغيرة قد يتسبب فى توقف نموها وطولها ، استدرجتها زوجتى فى الحديث عن غلاء المهور وشروط الزواج وعقوده ، فتناولت مزهوة حقيبة يدها وأخرجت عقد زواجها منتشية أنها قد بلغت مبلغ النساء ، ناولته لزوجتى التى ناولتنى إياه بعد أن دققت فيما تريده منه، عمرها وعمره ، ستة عشر عامًا . . . وخمسة وثلاثون عامًا ، وقرأت بصوت مسموع :

– الرجل البالغ العاقل المطلق ، وسيم . . .

تلعثمت عند الصفة الأخيرة وقالت زوجتى :

– مطلق ؟ وسيم مطلق؟

ونظرنا إليها . كانت كمن سمع بالكلمة لأول مرة وقالت :

– لا ، لم يتزوج قبلى أبداً ، لم يقل أحد ذلك .

خشيت أن أكون قد تورطت فيما لا شأن لى به ، وفتحت جرحًا يصعب التئامه ، لمت نفسى على رفع صوتى بالقراءة ، وأجهدت نفسى فى إصلاح ما أفسدت وقرأت من جديد :

– الرجل البالغ العاقل المُطْلَق .

وأردفت ، لعل معناها المطلق الحرية أى أن الرجل لا يحتاج لوكيل عند الزواج مثل الفتاة . وصدقت الطفلة البريئة اجتهادى السطحى ، وسكنت العاصفة ومرت بسلام ، فما سألت وسيم عند عودته عن الموضوع ، ولا علمت أنها فاتحته به بعد ذلك .

مرت الأيام والشهور ، كنت ألحظ أن وسيم يتجنب الخروج برفقة زوجته نهاراً ، ليبتعد بها عن العيون الفضولية ، إن حضر لزيارتنا أو لزيارة أحد من

أصحاب العائلات ، لايحضر إلا ليلاً ، بعد أن يطمئن إلى أن الحركة قد خفت .

حتى فى جلستنا العائلية كان يؤثر الفصل بين الأزواج والزوجات ، يريد أن يبعدها عن عيوننا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، كأنما يُخيّل إليه أن نظراتنا كانت ذات هدف واحد تحاول المقارنة بينها وبينه .

ومع حرصه الواضح فقد كان يخرج له "على" وكأنه وإياه على موعد زميلنا الذى اشتهر بفضائحه وسمعته السيئة .

كانت زوجته التونسية رائعة الحسن والجمال والخلق ، لكن عينه كانت زائغة ومتلصصة دائمًا ، يكمن لوسيم وزوجته ويتعمد لقائهما فى كل مكان ، وقبيل نهاية العام الدراسى افتتح فى البلدة سوق شعبى وهو سوق رئيسى يبيع كافة أنواع السلع ، أعلن السوق عن حاجته لبائعين وبائعات ولم يكن الأمر يعنينا فى شىء .

توجه سكان البلدة نحو السوق الشعبى فى يوم افتتاحه زرافات ووحدانا حبًا للاستطلاع ورغبة فى الشراء ، وسرت مع السائرين ، انتهت جولتى القصيرة فى السوق وتوجهت نحو منافذ الخروج التى بدت من بعيد أربعة منافذ متجاورة يقف عند كل منها محاسب أو محاسبة .

أثار دهشتى أن الناس تتزاحم عند منفذ واحد على اليمين بينما المنافذ الثلاثة الأخرى على يساره لا يكاد يمر بها أحد .

ازداد فضولى ، وقررت التوجه نحو المخرج المزدحم لمعرفة سر التدافع والزحام عليه ، اقتربت من المنفذ ونظرت إلى حيث ينظر الجميع .

كانت "داليا" تجلس على مقعد المحاسب والناس ينقدونها بنظراتهم ودراهمهم ، وعدت أدراجى صوب المنفذ الرابع من جهة اليسار ، وماعدت للسوق الشعبى مرة ثانية

أبو ماجد

فى ذلك السوق المسقوف الواصل بين شارع عمر بن الخطاب وشارع السعادة والمسمى "سوق أحياد" ، وفى منتصفه تقريبًا تقع دكان صديقى "أبوماجد" . غرفة صغيرة لاتتجاوز مساحتها أربعة أمتار مربعة ، علقت على واجهتها لافتة متواضعة "تصليح ساعات" .

مامررت من أمامها إلا وجدت صديقى ، بل عمى "أبوماجد" جالسًا على كرسى أمام دكانه ، أو منشغلاً بتصليح ساعة ، وأمامه طاولة جمعت فوقها وفى داخل درجها الوحيد جميع عدته فى هذه المهنة منذ تقاعده من الخدمة العسكرية فى سن مبكرة .

منذ خمسة عشر عامًا وأنا أزور عمى "أبوماجد" كل صيف ، كلما عدت إلى أرض الوطن لقضاء العطلة الصيفية ، وأنتهز كل فرصة سانحة تأخذنى إلى المدينة فأتعمد المرور بـ "سوق أحياد" وألقى نظرة أطمئن بها على وجوده فى مكانه ، أسترق النظر إليه من بعيد محاولاً المقارنة بين هيئته فى كل عام والعام الذى سبقه ، وأتعمد أحيانًا التوقف أمام محل مجاور متظاهراً بتأمل المعروضات من وراء الواجهة الزجاجية ، أو أدخل مكتب البريد المقابل لدكانه متعمداً إرسال رسالة أو شراء طوابع ، وأتمعن وجه صديقى الذى غضنّته السنون ، أنظر إلى عينيه خلف نظارته السميكة ، وألمح بحر الحزن العميق الذى تختزنانه . أتأمل منكبيه العريضين اللذين هدهما الدهر ، وكوفيته البيضاء وعقاله المائل قليلاً ناحية اليمين . لازهواً كأيام الشباب بل لأن أحوال الدنيا مائلة لاتسر .

أظل أنظر إليه طويلاً حتى يكاد يرتاب فى نظراتى إليه ، وأفطن إلى أننى

قد أطلت الوقوف ، أنتزع نفسى وألقى عليه تحية عابر سبيل وأمضى لشأنى.

مرات عديدة فكرت فى أن أحوِّل هذه الصداقة الصامتة إلى صداقة فعليه ، أن أتناول كرسيًا وأجلس بجانبه ، أحادثه ويحادثنى ، أشاطره بعضًا من الحزن الذى يرتسم فى عينيه وعلى قسمات وجهه ، أعرفه بنفسى ، لكننى أتراجع فى اللحظة الأخيرة ، وأردد بينى وبين نفسى :

ـ ما فائدة ذلك الآن ؟

منذ أكثر من عشرين عامًا كان ابنه ماجد صديقى . كنا غرباء نعمل فى بلد بعيد ، وفى مكان ناء شبه منقطع ، وما أمتن الصداقات والوشائج التى تولد فى ديار الغربة وفى زمن الصبا والشباب ! تظل عالقة فى الذاكرة ماظلت الروح عالقة فى الجسد .

كنا أربعة أصدقاء نسكن معًا فى بيت طينى صغير ، فى بلدة نائية فى قلب الصحراء ، وكانت البلدة على صغرها تعد مركزًا إداريًا لمجموعة من القرى المتناثرة على طول الطريق الأسفلتى الوحيد الذى يصلنا بمدينة أكبر إلى الشمال الشرقى من بلدتنا .

فى منتصف المسافة توجد القرية التى يعمل بها "ماجد" ، كان الشخص الوحيد من غير أهالى القرية ، وكان أول وافد تطأ قدماه ترابها .

كان ينتظر يوم الخميس بفارغ الصبر ليحضر لزيارتنا ، وكنا نتشوق للقائه ، وننتظر موعد وصوله فى لهفة وشوق كبيرين .

كان يحضر قبيل الغروب ، رغم أنه يفرغ من عمله عند الظهيرة ، وكثيراً ما ألححنا عليه ليحضر مبكرًا ، لكنه كان يرفض ركوب سيارات الأجرة من نوع "بيجو" التى تذرع الطريق جيئة وذهابًا طوال النهار .

كان يسخط على سائقيها واستهتارهم ويردد :

- يتشدق أحدهم بأنه قد أقفل عداد السرعة ، ويتباهى آخر بأنه من فرط سرعته يرى الأسفلت أمامه بعرض السيجارة .

لم يكن ماجد ضعيف الإيمان ، فقد كان أكثرنا تدينًا ، لكنه كان يرى أنهم يلقون بأنفسهم وبمن معهم إلى التهلكة لقاء بضعة دنانير يكسبونها في كل "مشوار" .

كان صديقنا يحرص على انتظار الحافلة الوحيدة التي تنطلق بعد العصر من المدينة وتمر بالقرى الواقعة على طول الطريق ، وتصل بلدتنا قبيل الغروب . فإن فاتته الحافلة لا يحضر ، وكنا نعرف ذلك . كان يردد :

- إن سيارات البيجو اللعينة هي التابوت السائر .

كان ماجد أصغرنا سنًا . لكنه كان فتى مكتهلاً في شبابه ، فإلى جانب طوله الفارع وملامحه الفتية وابتسامته التي لاتفارق ثغره ، كان فيه الكثير من وقار الكهول وعباراتهم : نسمعه يتنحنح وهو في بداية الطريق الموصل إلى البيت ، تسبقه عباراته المحببة المعلنة عن مقدمه "ياكريم" "يا أهل البيت" تمامًا كما يفعل الكهول . فإذا دخل وسلم رافقته عبارات لم نعد نسمعها . وكنا نألفها في حياتنا القروية ، ينتحي جانبًا وهو يقول :

- سأخلع نعليّ "أجلّكم الله" ثم أغسل رجليّ "أكرمكم الله" .

كنت أكبر المجموعة سنًا لكن صلتي بماجد كانت وثيقة للغاية . أُعجِب كثيراً برواية "زوربا اليوناني" التي أهديته إياها ، قرأها عدة مرات يؤنس بها وحدته في تلك القرية الصامتة التي تنام مع الغروب ، كان لا يخاطبني إلا قائلاً :

- كيف حالك اليوم أيها الرئيس ؟

كان يقصد العبارة التي تتكرر في الرواية على لسان زوربا .

يسرني سؤاله ، ويأخذنا الحديث بعيداً .

في نفس العام الذى أنهيت فيه عملى وغادرت تلك البلاد ، غادرها ماجد أيضاً ، سبقنى ثانية فى البحث عن موطن اغتراب جديد ، وفى نفس الصيف تزوج واصطحب عروسه وسافر للعمل فى بلد خليجى مجاور وانقطعت أخباره عنى طيلة ذلك العام .

فى الصيف التالى زارنى صديق قديم ، وقذف فى وجهى بحقيقة مفجعة :

– لقد مات ماجد ، مات الحريص على ركوب الحافلة .

أصابنى الذهول وقلت ملتاعاً :

– كيف ؟

– مات بحادث سير ، اشترى سيارة لتناسب الحياة الزوجية لكن الفرحة لم تكتمل .

– أكاد لا أصدق ؟

– كان حديث عهد بقيادة السيارة فوقع له حادث أودى بحياته ، وخَلّف وراءه عروساً أرملة وطفلة فتحت عينيها على اليتم من أول يوم ومضى ماجد لكنى أراه ، طيفه محفورة فى العين لازالت رؤاه .

ماكنت أعرف وجه عمى "ابوماجد" قبل وفاة ولده ، ولا عاينت موقع دكانه رغم أن ماجد كان قد وصفها لى ذات يوم .

لكننى منذ خمسة عشر عاماً أحرص على زيارة عمى "أبو ماجد" ، أتأمل وجهه الطيب الصبور ، وألقى عليه تحية عابرة ، دون أن يعرف من أنا ومن أكون .

أهم أحياناً أن أحادثه وأقول له :

– أنا صديق قديم لماجد وقد عزّ علىّ فراقه كثيراً .

صبّرك الله وأحسن عزاءك . ماأخبار ابنته ؟

لكنني أتردد كثيراً وتفتر عزيمتي عندما أقترب من الدكان ، وأحس بدافع يصرفني ، وهاتف يهتف بي :

- مافائدة ذلك الآن ، بعد خمسة عشر عاماً ؟

ألتفت ورائى ، وألقي نظرة على عمى "أبوماجد" وأواصل سيرى .

عيال الجنية

كانت "جوشة" كأنها فى عالم آخر ، قرية منزوية بين الشعاب ، نسمع عنها ولا نراها ، مع أنها لاتبعد عنا سوى قرابة ميلين ، وأبناؤها يدرسون فى مدرسة القرية التى يعمل فيها الأستاذ حامد ، لكنها كانت تحتجب إلى الغرب منا وراء الجبل الذى تقع قريتنا فى سفحه، وهو جبل قليل العلو إذا ماقيس بجبل "سيلان" الذى خلفه ، والذى تقع «جوشة» فى أسفل منحدراته ، مرتفعة قليلاً عن موطئ قدمه اليمنى ، وذلك لتجنب عنف السيول التى تجرف الناس والمواشى والسيارات والبيوت فى مواسم الأمطار الصيفية .

كان "سيلان" واحداً من أضخم الجبال ، شاهقًا فى علوه ، منقطعة سبل الوصول إلى قمته ، مع أنها لاتبدو من بعيد شديدة الوعورة . الواقف على قمته ى المنحدرات الغربية لجبال السروات ، وسهل تهامة الفسيح ، والطريق السريع الذى يعج بالسيارات ، وإذا كان النهار رائقًا تبدو على البعد زرقة البحر الأحمر .

من الجهة الشمالية كان يحيط بجوشة واحد من الجبال المتفرعة من جبل "سيلان" العملاق . لقد حاصرتها الجبال من كل جانب ، وما أبقت لها إلا مدخلاً واحداً ضيقًا فى جهتها الجنوبية فبدت كأنها تستقر فى هوة سحيقة تفصلها عن العالم ، فلا يصل إليها أحد من غير أهلها .

كان الأستاذ حامد شابًا فى مقتبل العمر ، طويلاً فارع الطول ، أشقر الشعر ، أزرق العينين ، فى غاية الوسامة والرشاقة، ترمقه فتيات القرية ونساؤها بنظرات الود والإعجاب ، وكان ذلك يغيظ بعض فتيان القرية

وشبابها ولايجدون مفراً من الصبر على الأستاذ حامد والقبول به على علاته. فهو الوحيد بين سائر زملائه المدرسين الذى يتقن كل شيء ، ويعمل بكل حرفة يحتاجها هؤلاء القرويون ، إنه يدرس أولادهم صباحًا شأنه شأن غيره من المدرسين ، لكنه محط آمالهم ومعقد رجائهم فلاتجد أحداً تعطلت ماكينة المياه فى بئره ، أو توقف مولده الكهربائى الصغير إلا لجأ للأستاذ حامد ليصلحها له . ولاشخصًا بنى بيتًا جديداً فاحتاج لكهربائى يمدد له التوصيلات ، أو يجصص جدران منزله ويبيضها بعد بنائها بالطوب ، أو سباكًا يمدد له توصيلات المياه إلا لجأ إليه ، أنه الشخص الوحيد فى هذه القرية المتعدد المواهب ، الذى يتقن كل حرفة .

وهم ينتظرون دورهم شهوراً حتى يفرغ مما فى يديه من عمل ، لثقتهم فيه ، أما زملاؤه الذين يتشجع بعضهم أحيانًا للعمل معه . فعملهم يقتصر على حمل الرمل والأسمنت وعمل الخلطة الأسمنتية ، وأحيانًا لايتعدى اسناد السلم الخشبى عندما يصعد الأستاذ حامد إلى الأعلى فى مهمة دقيقة.

ظل الأستاذ يسمع بجوشة القريبة ولايراها ، ويتصنت لحكايات عيال الجنية القادمين منها ، ويتشوق للتعرف على مسقط رأسهم ، فيزور الجنية فى مخدعها ولو لمرة واحدة .

ذات صباح تحقق حلمه ، واتته الفرصة المنتظرة ، عندما بنى شخص أول بيت مسلح بالأسمنت والطوب فى جوشة وجاءه طالبًا منه القيام بالتمديدات الكهربائية وأعمال السباكة .

تهادت به سيارته على مهلها فى طريق ترابى مغبر يصعد حينًا ويهبط حينًا آخر .

أكمل اجتياز المنطقة المعروفة لديه ، والتى اعتادت العين على رؤيتها

صباح مساء ، بدأت سيارته تضع أولى خطواتها فى المجهول ، تعبر الممر الضيق الذى تحرسه من الجانبين بضع صخرات ناتئة من جانب الجبل ، يحسبها الداخل للمرة الأولى أنها ستطبق عليه لفرط ميلها ، أو تطبق على الطريق ، فلا يبقى هنالك مخرج لأهل "جوشة" إلا أن ينتشلهم أحد من السماء .

عبرت السيارة مصعدة ببطء وحذر فى الطريق الضيق الذى يصعد محاذيًا لخاصرة الجبل ، يستند إلى حافة الجبل عن يمينه ، وعلى يساره بدت ملامح هوة عميقة موغلة فى الانحدار ، هى مجرى السيول الجارفة المتجمعة من سفوح "سيلان" وشعابه ، لقد حفرت هذا الأخدود الرهيب على مر الأزمان .

هاله الأمر عندما فكر فى طريق عودته عندما تكون الهاوية على يمينه ، وهو يسير بمحاذاتها تمامًا لضيق الطريق . ماذا لو قابلته سيارة أخرى واضطرته أن يأخذ أقصى يمينه ، على الحافة الترابية تمامًا ، عندها سيكون على شفا جرف قد ينهار به إلى جوف لاقرار له .

وبدت أمامه "جوشة" ببيوتها القليلة الضئيلة المتناثرة فى أسفل السفح، نظر من بعيد إلى بعض الأشجارالبرية العملاقة الملتفة حول القرية ، لاشك أن هناك موطن الجنيات اللائى طالع وجوه أبنائهن القبيحة .

الطريق يزداد وعورة وضيقًا ، لم يعد لديه رغبة لمواصلة المسير ، أن "جوشة" كلها وماحولها من مساكن الجنيات بادية أمامه الآن ، ماعليه إلا أن يتمعن قليلاً وستبرز له إحداهن خارجة من تحت ظلال واحدة من هذه الأشجار العملاقة . إنه يبحث عن مكان يمكنه التوقف فيه على جانب الطريق ، يتأمل المشهد قليلاً . لقد وضحت له "جوشة" كلها ، والأشجار الوارفة الملتفة ، مهجع الجنيات بعد حلول الظلام فى غسق الليل وقبيل

الفجر .

لكن كيف له أن يعود ويخلف موعده مع الرجل الذى انتظره أكثر من شهر لابد من مواصلة المسير ، وهاهى القرية على مرمى حجر منه ، وذلك البيت الأسمنتى الوحيد فى "جوشة" الذى لا يشبه إلا نفسه ، يتربع على ربوة عالية على يمين الداخل للقرية .

وصل الأستاذ مبكرًا ، عاين المكان واتفق مع صاحب المنزل على العمل وعلى الأجر . كان اتفاقًا سريعًا سهلاً شأنه شأن غيره من الاتفاقات التى يبرمها مع هؤلاء القرويين ، فهو يُملى شروطه وسعره ، إذ لايملك الطرف الآخر خبرة فى نوع المواد . ولافى طبيعة العمل ، أنه يفاوض نفسه ويكتب العقد على النحو الذى يحلو له ، بينما يبصم صاحب البيت بإبهامه وقد امتلأ فرحًا وزهوًا بالنور الذى سيشع فى بيته بمجرد لمسة سحرية خفيفة على قطعة خزفية بيضاء فى الجدار . حالمًا بالماء الذى سيتدفق من حنفية فى جدار المطبخ . أو الحمام ، فينحدر صوب مغسلة أنيقة مارأتها عين فى جوشة . ويترحم على آبائه لو أتيح لهم أن يعيشوا ليشهدوا هذا اليوم المشهود الذى سيكون فيه بيت ابنهم وحفيدهم أول بيت فى القرية يشع نورًا دون حطب أو زيت .

لم يشأ الأستاذ أن يكتفى بالمعاينة ، بل انكب مباشرة على العمل لينجز ما يمكنه إنجازه طيلة هذا النهار . واصل عمله بهمة ونشاط ، وكان بين الفينة والفينة يسرح ببصره بعيدًا نحو الأشجار الوارفة الملتفة حول القرية ، لعله يشاهد واحدة من الجنيات التى طالما حلم برؤيتهن ، وشاهد الكثير من عيالهن ، لكنه لم يحظ برؤية واحدة منهن غير جارته القبيحة فى الشعب المجاور ، ولعل الفرصة تواتيه فى هذه الأيام القليلة التى سيشتغل بها فى "جوشة" .

وخلال انهماكه فى عمله كان يحدث نفسه قائلاً :

- لو أنصفوا لسموهم عيال الجنى ، فلكل منهم أمه الإنسية المعروفة أليست جارتنا فى الشعب المجاور واحدة منهن ، قادمة من "جوشة" وحولها سرب من "الكتاكيت" . إن الجنى الذى يذرهم هو وحده الذى لايبدو فى الصورة ليكتمل به المشهد . حقًا إنهم عيال الجنى .

ففى هذه البرية المنقطعة ، وهذا الليل البهيم ، لارقيب ولاحسيب ما أن تطمئن إحداهن إلى انقطاع الحركة وإغفاءة العيون المتلصصة حتى تنسل إلى عريشة وارفة من مساكن الجنيات الكثيرة حول القرية وبعد مدة يتكور البطن وينتفخ وينفضح ماكان سراً ، ثم يتحدث عن حكاية عيال الجنية .

عيال الجنية الذين يجاورننا أغرب ماعرفت من عيال الجنية ، أمهم هذه الإنسية القبيحة ، وأبوهم الذى ينتسبون إليه إنسى معروف ، هجر أمهم منذ زمن وغاب فى سفر بعيد ، وعاد ومعه زوجة جديدة ، زوجة نظيفة فارعة الطول ، أما الأولى التى خلفها وراءه وأودعها بيت أهلها فى "جوشة" قد ملأت البيت عيالاً فى غيبته ، ولاضير ، إنهم عيال الجنية ، ربما كان أبوهم ابن جنى وجنية معًا ، إذ لا أخ له ولاقريب فى هذه القرية على الإطلاق ، إنه بمفرده قارع الجميع ، وضع يده على سفح الجبل المقابل وبنى بيتًا شامخًا مثل عش النسر ، أنه بلاشك ابن جنى وجنية معًا .

جاءه غلام صاحب المنزل بالشاى مرات عديدة ، فى كل مرة كان يستميله إلى جانبه ويستدرجه فى الحديث قليلاً ، حتى سأله عن جنيات جوشة ومساكنهن ، وكيف يمكنه استراق نظرة إليهن ولو من بعيد .

أشار الغلام بيده إلى الأشجار العملاقة التى تحيط بالقرية وقال :

- إنها هناك ، تعيش فى الظلال الوارفة ، لكن أحداً لايبصرها فى ضوء النهار . إنها لاتظهر إلا بعد الغروب ، وتختفى بعد انبلاح الفجر .

عمل الأستاذ النهار كله ، نسي نفسه ، حتى أدركه الغروب جمع أدوات عمله ونسى حكاية الجنيات وتهيأ للعودة لبيته .

قبل أن يغادر القرية انتحى جانبًا من الطريق ، يريد قضاء حاجة تحت شجرة تين عملاقة ، تدلت فروعها حتى اتصلت بالأرض فصارت خيمة محكمة الصنع ساترة ماتحتها .

ما إن قضى حاجته وهم بالنهوض ليواصل سيره حتى رن فى أذنيه صوت أنثوى منبعث من أعلى الشجرة .

– مكانك ياحامد وإلا صرخت بأعلى صوتى وجمعت عليك "جوشة" كبيرها وصغيرها وادعيت أنك حاولت الاعتداء عليّ .

تسمر الأستاذ فى مكانه وهو يسمع الصوت ولايرى صاحبته ولايدرى أين مكانها على وجه التحديد ، وحدث نفسه ، بأنها الجنية – ارتعدت فرائصه خوفًا ، حاول استئناف مسيره ، لكنها لم تمهله ، كانت قد قفزت إلى الأرض متلفعة بعباءة وحجاب أسودين ، لايرى منها إلا عينين براقتين ، أمسكت بقميص الأستاذ وجذبته جذبًا عنيفًا ، تعلقت به وأحاطته بذراعيها بقوة وعنف .

كان الأستاذ قد أعياه تعب النهار كله ، وهده الخوف وهول المفاجأة ، فاستسلم لها دون مقاومة ، رجاها طويلاً وتوسل إليها أن تتركه يمضى لشأنه، يعود إلى زوجته وأطفاله ، لقد تأخر كثيرًا وحل الظلام الذى يفزعهم .

– أنا مادعوتك ياأستاذ ، لقد سألت بلسانك عن مساكن الجنيات وساقتك قدماك إلى مخدع واحدة منهن ، فكيف أتركك ؟ ألم تسأل الغلام هذا النهار عن موطن الجنيات ؟ ومتى تتكرر مثل هذه الفرصة وتضع الجنية غلامًا أشقر أزرق العينين ؟

لم تترك له فرصة للتمنع والمقاومة ، وبركت فوقه ، هددته بالصراخ ، أسلّم لها قياده وتركها تفعل ماتشاء .

تلاحقت أنفاسها وتهدج صوتها وتوحد الإنس والجن ظلت باركة على صدره حتى روت ظمأها ، ثم نهضت ، لفّت نفسها مجدداً بعباءتها وحجابها وقبل أن يبتلعها الظلام أدركها سؤال الأستاذ حامد !

– قبل أن تبتعدى لى رجاء وحيد .

توقفت الجنية عن سيرها وقالت :

– تدلل

– كيف ستوارى تبعات الأمر ؟

– ذلك أمر يسير ، إنه واحد من عيال الجنية ، لن يختلف عنهم إلا فى زرقة عينيه واصفرار شعره ، وابتلعها الظلام .

تحامل الأستاذ حامد على نفسه ونهض واقفاً يستر بعضاً من عريه . خطا خطوات وئيدة وهو ينفض بكلتا يديه الغبار الذى علق بمؤخرته لاعنًا "جوشة" واليوم الذى سأل فيه عن الجنيات وعيالهن



انقضت نصف ساعة أو يزيد وهو لايزال على وقفته فى انتظار الحافلة فى محطتها الرئيسية بساحة "المرجة" فى وسط الشام . كلما أقبلت حافلة تدافعت نحوها الجموع التى أرهقها الانتظار الطويل ووهج شمس الظهيرة ، ونهاية يوم من العمل المضنى . دفع بنفسه وسط الحشود وقد امتلأت الحافلة وأغلقت بابها وهو لايزال على الرصيف ، تكرر المشهد مرة ثانية وثالثة ، وفى كل مرة يجد نفسه فى مؤخرة الجمع المتشبث بباب الحافلة وهيكلها .

حيّرة سؤال قفز إلى ذهنه ، كيف تأتى الحافلة إلى الموقف الأول ممتلئة تقريبًا ؟ أليست هذه بداية الخط وأول محطة فيه ؟ فمن أين أتى هؤلاء الذين ملؤوها ؟ ومتى ركبوا ؟ ولم يجد لسؤاله جوابًا .

عاد إلى وقفته الأولى بعد أن ابتعدت الحافلة بمن انحشر داخلها من الخلق، سرح بذهنه بعيداً إلى عشرين سنة خلت ، كان يركب الحافلة فى هذا الخط بالذات بكل يسر وسهولة فى أى محطة منه ، فى البداية أو قريبًا من النهاية لافرق فى ذلك ، يجد مقعداً للجلوس ومتسعًا لتصفح الجريدة أيضًا . ماالذى بدل الحال غير الحال ؟ ومن أين جاءت كل هذه الحشود المتدافعة فى كل مكان ؟ لام نفسه . ماالذى يضطره لهذه الوقفة ؟ لِمَ لايأخذ سيارة تاكسى ؟ كما يفعل فى كل مرة عندما يخرج مع زوجته وأولاده إلى أى مكان فى أرجاء الشام .

إن أجرتها زهيدة بالنسبة له ، فهو لم يعد طالبًا ، إنه موظف مغترب منذ سنين وقد حضر لقضاء عطلة الصيف ، إنه يمتلك سيارة ، صحيح أنه لم يصحبها معه خوفًا من متاعب الأعطال وانقطاع السبل به فى مكان بعيد ومنعزل ، خاصة بصحبة زوجة وأطفال . لقد آثر سيارة الأجرة على تحمل

مسئولية القيادة وأعطال السيارة أو سرقتها في بلد غير بلده . يمكنك القول أنه آثر راحة نفسه وهدوء باله على راحة زوجته وأولاده الذين رغبوا لوكانت الرحلة فى سيارتهم الخاصة ، ليأخذوا حريتهم فى النزول والتوقف والاستمتاع بالمكان الذى يروق لهم ، حتى فى الحديث والنوم وتناول الطعام والشراب على جنبات الطرق فى الأماكن الظليلة .

لِمَ لا يأخذ سيارة أجرة ويمضى ؟ ماالذى يشده شداً لانتظار الحافلة وسط هذا الطوفان البشرى ؟ إنه لم يعد طالباً مضطراً للتقتير فى مصروفه ، ولم يعد شاباً تستهويه مثل هذه التدافعات والالتصاقات أحياناً ، بل لايليق بمثله أن يجرى هكذا مدافعاً مزاحماً . فلماذا كل هذا الإصرار على ركوب الحافلة كلما وجد فرصة للتحرر من زوجته وأطفاله ، والانطلاق وحيداً ، ومتى تواتيه هذه الفرصة ، إنها لاتأتى إلا في عز الظهيرة ، عندما يخلد الأطفال وأمهم إلى قيلولة هانئة . فينسل وحيداً ليركب الحافلة دونما هدف ، يسير فى نفس الخطوط التى سار فيها قبل عشرين سنة ، ينزل فى نفس المحطات ، يتفرس في وجوه البنايات والمحلات والمارة ، يتعرف على الكثير الذى بقى على حاله ولا يتعرف عليه أحد .

اقتربت الحافلة التالية من الموقف ،حزم أمره وهجم مع الهاجمين فى جولته الرابعة ، أفلح هذه المرة ، وضع قدمه اليمنى على سلم الحافلة ، دفعه الموج البشرى للداخل ، صار فى داخل الحافلة . مد يده عالياً ليقبض على حلقة من الحلقات الجلدية المتدلية من عمود فى سقف الحافلة ، لتساعده على حفظ توازنه وتمنعه من التأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، أفلح فى القبض على واحدة منها .

كان الزحام شديداً والأجساد تلتصق ببعضها والأنفاس الحارة تتصاعد ، والعرق يتصبب من الجباه . مال بنفسه قليلاً ناحية اليمين ليتكئ على حافة مقعد جلست على جانبه الخارجى ناحية النافذة امرأة فى منتصف

العمر ، فى مثل سنه تقريبًا ، وبجانبها جلس شاب لم يتجاوز العشرين من عمره على وجه التقريب . نهض الفتى من مكانه واقفًا وبإيماءة تحمل كل الذوق والأدب والتهذيب ، أرفقها بعبارة :

– "تفضل عمى ، اجلس" .

"عمى" ! دارت الكلمة برأسه كأنه يسمع هذا اللفظ لأول مرة فى حياته، عمى! هو عم فعلاً لعشرات الفتيان والفتيات ، فإخوانه – البركة – ثمانية وكلهم متزوج وعنده حشد من الأطفال ، هو عم بجدارة ، طالما سمعها من أفواه أبناء وبنات إخوانه وحتى من زوجات إخوته ونساء العائلة اللائى يكبرنه سنًا ، يخاطبنه "عمى" من قبيل التوقير والاحترام . الكلمة ليست غريبة على مسامعه ، لكنها الآن بدت له غريبة جداً ومفاجئة جداً ، وقبل أوانها .

شكر الشاب بحرارة ، وأثنى عليه ، ورفض بإصرار الجلوس مكانه .

لكن الكلمة (عمى) انغرزت فى القلب كنصل حاد . إنها المرة الأولى التى يسمعها فى حياته فى هذا المقام . إنها لا تحمل إلا معنى واحداً ، التعاطف والشفقة على مشقة الوقوف على القدمين وسط الزحام .

ولمن يكون الوقوف فى الحافلة وإخلاء المكان ؟ ألغير النساء والشيوخ ؟

ظل مطرقًا بقية الطريق ، لم يتفرس فى ملامح الشارع ليرى مابقى منه على حاله وماتغير منه . إنه نفسه لم يبق على حاله ، ألم يقلها له الشاب الذى تطوع لإجلاسه مكانه .

وصلت الحافلة محطة (ابن النفيس) فى حى ركن الدين ، جر قدميه هابطًا ، دخل المنزل ، توجه فوراً صوب المرآة الكبيرة المثبتة فى واجهة الخزانة فى غرفة النوم ، تأمل صورته طويلاً كما لم يتأملها من قبل .

للمرة الأولى لاحظ تجاعيد كثيرة فى جبهته ، وانتفاخين بارزين أسفل عينيه وخيوطًا بيضاء ضئيلة تتسرب بين ثنايا شعره .

فاتورة الكهرباء

كانت المرة الأولى التى أدخل فيها إلى المبنى الجديد لشركة الكهرباء مستفسراً عن تأخر وصول فواتير الكهرباء لشهرين متتابعين ، منذ أن قامت الشركة بإضافة عدادين لشقتين جديدتين فى منزلى .

فقد خشيت مع هذا التأخير أن يتم اعتبارنا متأخرين عن الدفع ، فيقطع عنا التيار الكهربائى .

وجدت نفسى أذرع هذه الصالة الواسعة جيئة وذهاباً من قسم الجباة إلى قسم الكمبيوتر إلى قسم المشتركين إلى الملفات . كل موظف يدفعنى إلى الموظف الذى يليه فى جولة هدفها الوحيد تخفيف الزحام عن كاهلهم والتفنن فى تشتيت هذا الطابور الطويل من المراجعين .

وبينما كنت أهم بالمغادرة يائساً وفى يدى آخر فاتورة سددتها قبل شهرين ، وورقة سجلت عليها رقمى العدادين الجديدين وقراءة كل منهما حتى تاريخ هذا اليوم أغادر هذا المبنى تماماً مثلما دخلته .

استوقفنى نداء موظف من قسم الملفات :

– أنت ، ياحاج ، صاحب العداد الجديد .

والتفت ورائى فرأيته يشير إلىّ بيده ، فعدت أدراجى نحوه ، فأشار بيده إلى جهة اليمين وقال :

– غرفة رقم تسعة .

وتوجهت إلى الغرفة التى أشار إليها ، ومنيت نفسى أن يكون حل العقدة فى هذه الغرفة .

كان ثلاثة موظفين يجلسون حول طاولة خشبية عتيقة ، وقد تحلقوا

حول صحنين من الحمص والفول وبضع حبات من الفلافل ، بينما جمهرة من المراجعين تنتظر بالباب ريثما يفرغ السادة من تناول إفطارهم .

بادرنى أحد الثلاثة وكان فيما يبدو أكبرهم سنًا وربما رئيسهم ، تزين وجهه لحية مهذبة مشذبة ، زادها هجوم البياض عليها هيبة ووقاراً وقال :

– تفضل ياحاج ، تفضل افطر معنا .

شكرته على دعوته ، واستغربت دعوته لى بالذات من بين عشرات المراجعين المتزاحمين ببابه . رحت أتفقد هيأتى ولباسى وأسأل نفسى :

– ماالذى يجعله ينادينى بقوله ياحاج ؟

لست محرمًا وما ارتديت الثوب أبداً رغم أننى أعمل فى السعودية منذ خمسة عشر عامًا .

صحيح أننى حججت عشر حجات بحكم عملى فى مكة المكرمة ، لكننى ماكنت أنزع لباس الإحرام حتى أسارع إلى ارتداء قميصى وبنطلونى، فما الذى أدراه أننى حاج .

أيوقرنى لكبر سنى ؟ إن فى الجمع المنتظر من هو أسن منى .

وبينما كنت حائراً فى تفسير ذلك كانت نداءاته الملحة وإفراغه كرسيًا لى للجلوس بجانبه ، كل ذلك يدفعنى دفعًا للدخول وتجاوز دورى فى صف المنتظرين ، وقد أحرجنى ذلك كثيراً فألقيت نظرة طويلة على طابور المراجعين أتأمل وجوههم كأنما أستأذنهم فى عدم الاعتراض على دخولى ، فالفيت وجوههم باهتة لاتعبير فيها ، وعيونهم مُنكسة نحو الأرض كأنما تقول لى على مضض :

– ادخل ، ومن يجرؤ على اعتراض طريقك مادام كبيرهم قد دعاك .

دخلت الغرفة ، فحيانى مرحبًا كأنما يعرفنى منذ سنين ، أجلسنى بجانبه، وألح علىّ فى مشاركتهم إفطارهم ، ورغم اعتذارى بأننى قد

أفطرت إلا أنه أصر على أن يناولنى لقمة بيده قائلاً :

- حتى يصير بيننا عيش وملح .

ثم ثنّى بكوب من الشاى ، وهو فى ذلك يطيل الحديث فى أمور لا علاقة لها بموضوع مراجعتى :

- كيف حالك ؟ وكيف صحتك ؟

- بخير والحمد لله .

- من أى بلدة أنت ياحاج ؟

- من قرية كذا .

- أهلاً وسهلاً ، تشرفنا ، وهل تعرف فلانًا ؟

- نعم أعرفه لكننى لم أره منذ سنين .

- إنه جارنا ، وابنه يعمل فى مكان كذا ، وابنته تزوجت من فلان . . .

- إننى لا أعرف إلا الجيل القديم الذى عاصرته فى القرية ، أما جيل الأبناء والأحفاد الذين نشأوا فى الخارج فلا أعرف منهم أحداً .

- وتعرف فلانًا وفلانًا وفلانًا ، إنهم جميعًا من بلدتكم .

- نعم أعرفهم جميعًا وقد يعرفوننى أو لا يعرفوننى ، فقد كنت أصغر منهم سنًا ، لكنهم بالتأكيد يعرفون أهلى وإخوتى الكبار .

كانت نظرات المراجعين تحاصرنى وتلح علىّ بالانتهاء من هذه المقابلة ليتفرغ لطلباتهم ومراجعاتهم ، بينما هو يلاحقنى بأسئلته فلا يترك لى مجالاً للحديث عن موضوع تأخر فواتير الكهرباء التى جئت بسببه .

- وأين تعمل ياحاج ؟

قالها وهو يمعن النظر إلى الخف ذى الإصبع الذى أنتعله .

- فى السعودية .

- وما عملك هناك ؟

– أعمل مُدرسًا .

– وكيف الراتب ؟ إن شاء الله فيه بركة .

– مقبول والأحوال مستورة ولله الحمد .

– إن لى ولدًا أنهى دراسته الجامعية من قسم اللغة الانجليزية منذ عامين ولم يحصل على وظيفة بعد ، ألا تستطيع أن تدبر له عقد عمل عندكم ؟

– ياعزيزى ليس هناك عقود داخلية فى مجال التعليم على الإطلاق إلا لشخص مقيم هناك ، أما الذى فى الخارج فلا سبيل إلى تعاقده إلا بمراجعة مكتب التوظيف التابع لهم عندنا فى العاصمة ، كثيرًا مايعلنون عن حاجتهم لمدرسين خلال العطلة الصيفية ، وبإمكانه التقدم بطلبه والتعاقد . أعرف كثيرين فعلوا ذلك . انتهيت من إجابتى سريعًا ، وكنت أحسب أنه سيصرفنى فورًا قائلاً :

– انتهت المقابلة مادمت لم تتعاون فى موضوع تعاقد الولد . وحاولت قبلها أن أذكره بموضوعى ، موضوع الفواتير التى لم تصل .

– ياسيدى عندى فواتير . . ولم يمهلنى لأكمل حديثى .

– أين يقع منزلك ياحاج ؟

– فى حى كذا .

– بالله عليك ! وانشرحت أساريره وكأنه يالف المكان الذى أقيم فيه أيضًا .

– يارجل كأن الله يحبك ، أنت رضى والدين ، وأمك تدعو لك .

وقلت فى نفسى :

– أحسبها تدعو علىّ .

– وماسر هذا الرضا ؟ هل تسكن أنت أيضًا فى هذا الحى ؟

– ياليت ، كنا ظفرنا من الجمل ولو بأذنه .

- أى جمل يا أبا . . . ؟

- أبو محمود .

- أى جمل يا أبا محمود ؟ نحن فى حى متواضع بسيط ، لعلك تقصد حيًا غيره .

- حيًا غيره ؟ وهل تشككنى في معلوماتى ؟ فى الأسبوع الماضى كنا هناك وركبنا مولدًا جديدًا إلى الشمال من شارعكم حيث . . . وخفض صوته وقرب فمه من أذنى موشوشًا :

- سيشق شارع دائرى بعرض أربعين مترًا . لاتخبر أحدًا بذلك ، ستصبح الأرض بسعر الذهب .

وخفض صوته أكثر وهو يقول :

- اشتر بضعة دونمات قبل أن يفطن أحد لذلك ، إنها صفقة العمر وأفضل من الغربة وهمومها .

أجبته :

- أفكر فى الأمر إن شاء الله ، وأذهب لرؤية الأرض على الطبيعة ، وأسأل عن الأسعار وأصحاب الأراضى .

- لاتفكر ولاتسأل ، لقد فكرت لك فى كل شىء ، وسألت عن كل شىء أصحاب الأرض أعرفهم واحدًا واحدًا ، وهم أنفسهم لا يعلمون شيئًا من أمر الشارع الجديد . وكثرة السؤال قد تجعلهم يفطنون للأمر ويرفعون الأسعار .

عندما تنوى الذهاب أذهب معك وأكون واسطة خير ، فهم يعرفوننا فى الشركة ، ونسهل لهم معاملاتهم ، ولن يقصروا معنا .

حاصرنى من كل جانب ولم يترك لى مجالاً للأخذ والرد فى موضوع يحتاج للتروى والاستفسار من أكثر من جهة .

– اليوم ، بعد العصر أمرّ عليك .

– بل تؤجل الموضوع يومين أو ثلاثة ، عندما تصلنى الفواتير المتأخرة سأحضر لتسديدها ، وسأمر عليك وأكون قد قررت إن شاء الله .

وألح عليّ طيف ولدى الصغير الذى تركته فى السيارة ينتظرنى فى وهج الشمس وقد تأخرت عليه قرابة ساعة كاملة .

ودعت الرجل واستأذنته فى الانصراف ووعدته بالعودة عند وصول الفواتير ، ورأيت جموع المراجعين يتنفسون الصعداء لانصرافى ، لعله يتفرغ لمراجعاتهم . لكنه خيّب أملهم عندما تأبط ذراعى وأنا أغادر مكتبه ليودعنى إلى الباب الخارجى هامسًا فى أذنى :

– إنها فرصة ذهبية ، اشتر بضعة دونمات وأضغط على الرجل ليبيعك بسعر مناسب ، وقد اشترى معك فى نفس المكان دونما واحداً .

– نتشرف بمجاورتك ياأبامحمود .

– أنت تدفع للبائع نقداً ، وأنا أدفع بالتقسيط على قدر الإمكانيات .

– خيراً إن شاء الله .

سحبت يدى من يده وقد فهمت سر هذا الترحيب الحار ، ورجعت إلى ولدى الذى استطال غيبتى .

فى اليوم التالى كان جابى الشركة يحمل الفواتير المتأخرة إلى منزلى ويصر على أن يسلمها لى يداً بيد حتى لاتضيع وأضاف :

– يسلم عليك أبومحمود ويقول لك :

–بادر بالتسديد خلال يومين .

استلمت الفواتير ومادخلت للمنزل ، بل سارعت إلى أقرب مصرف مجاور ، سددتها فيه ، وما وطئت قدماى عتبة مبنى شركة الكهرباء مرة ثانية رغم مضى سنوات على معرفتى بأبى محمود .

صحن حمص

فى منتصف شارع السعدون وعلى يسار القادم من ساحة التحرير والمتجه شرقًا صوب ميدان الجندى المجهول كانت تقع البناية ذات الدورين التى تأوى منظمتنا . وكان نصيبنا من هذه البناية نحن أعضاء الهيئة الإدارية لاتحاد الطلبة غرفة صغيرة على يمين الداخل للمبنى ، ربما صُممت أصلاً لتكون غرفة لحارس العمارة . وقد اكتظت بالأوراق والبيانات الثورية والمنشورات الدعائية ، والكتيبات من كل صنف ولون . بعضها مُهدى إلينا من اتحادات طلابية ومنظمات ثورية ، وبعضها معد من قبلنا للتوزيع على قواعدنا الطلابية .

بكل صعوبة كانت غرفتنا تتسع لطاولة معدنية قبعت فوقها آلة طابعة وخلفها كرسى يتيم . وفى الناحية المقابلة مقعد خشبى يتسع لثلاثة أو أربعة طلاب على أكثر تقدير .

كانوا يراجعوننا مساء من أجل بطاقة انتساب لاتحادنا ، أو ورقة إثبات تسهل لهم بعض شؤونهم .

لقد تم انتخابنا منذ حوالى شهرين بدلاً من الهيئة الإدارية السابقة التى عمرت طويلاً وتشبثت بهذا المكان بضع سنين . وكان فوزنا أمرًا متوقعًا ، فقد اكتسح زملاء لنا ينتمون لنفس التيار الذى ننتمى إليه معظم فروع الاتحاد فى شتى العواصم القريبة والبعيدة خلال هذا العام والعام الذى سبقه .

كنا جميعًا حديثى عهد بإدارة الشؤون الطلابية وتصريف الأمور ، فليس بيننا من تسلم عضوية الهيئة الإدارية قبل هذه المرة ، وتمنينا لو نجح

من بيننا واحد من خصومنا القدامى ، ليكون دليلاً لنا فى عملنا ، وهمزة وصل بيننا وبين الاتحادات الطلابية والمنظمات التى تقيم علاقات مع اتحادنا ، ولكن ذلك لم يحدث ، وعلينا أن ندبر شؤوننا عن طريق التجربة والخطأ .

حتى مدير مكتب المنظمة الذى يقبع فى مكتبه فى الطابق العلوى ، والذى يعتبر اتحادنا واحداً من المؤسسات الرئيسية المتفرعة عن منظمته لم يسأل عنا كل هذه المدة ، ولا تلطف باستقبالنا والترحيب بنا وإلقاء كلمة توجيهية يحثنا فيها على إتقان عملنا فى خدمة الطلبة كما هى العادة المتبعة .

كم مرة أخبرنا أن الأستاذ محمود سوف يستقبلنا للتعرف علينا ، لكن هذا اللقاء الموعود تم تأجيله عدة مرات لأسباب لانعملها .

وأخيراً بعد شهرين كاملين جاءنا المراسل الذى تقابل غرفته غرفتنا لكنها تزيد عليها أناقة وحسن تاثيث ، وقال :

– الأستاذ أبو مصطفى يدعوكم لزيارته فى مكتبه ، وهو فى انتظاركم فلا تتأخروا عليه .

وماكنا لنتأخر ، فنحن ننتظر هذا اللقاء منذ أمد بعيد . بعضنا لم يلمح أبا مصطفى على الإطلاق ، فهو يحضر قبلنا وينصرف بعدنا ، وبعضنا يعرفه بالوجه فقط نهضنا جميعًا وتوجهنا إلى مكتب الأستاذ محمود مدير المنظمة .

رحب بنا أجمل ترحيب ، وتحدث إلينا طويلاً عن الماضى والحاضر والمستقبل . كان رجلاً مثقفًا واعيًا خبيراً بالسياسة وتقلباتها ، لكنه لم يكن صريحًا معنا بما فيه الكفاية ، كان متحفظًا كانه يخشى أن يأتمننا على أسراره أو يطلعنا على توقعاته . فهو يعلم علم اليقين أننا من أبناء هذه العاصفة التى هبت سريعًا ، واندفع الناس خلفها فاقتلعت غيرها من

المنظمات والحركات الثورية وحلت محلها فى معظم الاتحادات الطلابية والعمالية والنسائية .

بدا لنا أبومحمود مثل صخرة راسية أو شجرة عميقة الجذور ، لايندفع وراء الموجات العابرة ، ولاتستهويه الفورات المؤقتة .

حدثنا عن جهاده القديم ومعاركه التى خاضها فى لواء الجليل ، وعن مقالاته السياسية ، وأبحاثه المنشورة فى مجلات رصينة ، وعن أسفه من أن الزبد لايذهب جفاء هذه الأيام ، بل هو الذى يطفو على السطح فينخدع الناس به ، وأن ماينفع الناس لا يبقى فى الأرض بل يقتلع من جذوره .

ودعا لنا بالتوفيق فى عملنا ، وقد حاول أن يمد جسراً بيننا وبينه ، وإن كان يبدو عليه الارتياب فى أمرنا ، ويتهيب من أن نكون عيوناً عليه . ودعناه وانصرفنا .

لم يمض على هذا اللقاء سوى أيام معدودات عندما علمنا أن الأستاذ محمود قد أبعد عن وظيفته ، وحل محله شخص كل مؤهلاته أنه أكثر ولاء للتيار الجديد .

ولم يشفع لأبى مصطفى الذى كان قد ذرف على الخمسين يومها كل ماضيه النضالى ، وعمره الذى أفناه مجاهداً ببندقيته وقلمه ، فما تم نقله إلى موقع آخر أو عمل مناسب . لقد كان تتويج كفاحه الطويل بالاستغناء عن خدماته فى طرفة عين لأنه لا ينتمى لهذا التيار الصاعد ، وتركه محروماً من أى تكريم مادى أو معنوى ، ودونما حقوق من أى نوع .

أسفنا على فراق أبى مصطفى الذى ماعرفناه إلا فى لقاء واحد ونسيناه مع مر الأيام والشهور .

وذات مساء وبينما كنا خارجين من إحدى دور السينما فى ميدان الباب الشرقى أنا وزميليّ عبدالله ومحمود نبحث عن مطعم متواضع بين هذه

المطاعم المتناثرة فى ساحة التحرير والتى تقدم وجباتنا المفضلة والرخيصة من الحمص والفول والفلافل .

اخترنا مطعمًا حسبناه جديداً فى هيئته وموقعه . جلسنا على طاولة على الرصيف العريض ، نادى كل منا :

– صحن حمص .

انشغلنا برهة بالحديث وتأمل المارة وقراءة نشرة الأخبار الضوئية التى تظهر على لوحة بارزة على الجانب الآخر من الشارع .

وضع صحن حمص أمام كل منا وهو يقول :

– مرحباً ياشباب .

رفعت رأسى مستطلعًا ، فهذا الصوت مألوف لأذنى ، لقد سمعته قبل اليوم ، ولكن أين ؟

حدقت فى الرجل ، ووقعت العين على العين .

راعنى الموقف وأذهلتنى المفاجأة ، وعقدت الحيرة لسانى ، وشاهدت الرجل ينظر إلينا وهو يغالب دمعة تكاد أن تقفز من عينيه .

وبصعوبة بالغة ، وبعد جهد جهيد استطعت أن أجمع قواى كلها فى كلمة واحدة تقطر أسى وأسفًا :

– أبو مصطفى ؟

ومانطقت غيرها ، ولاذُقت للحمص طعمًا . نهضت من مكانى أذرع الشارع على غير هدى ، وذهلت عن صاحبىّ اللذين خلفتهما عند أبى مصطفى ومضيت .

الجوكر

كانت المرة الأولى التي تجتاز فيها قدماي عتبة مبنى المحافظة بغية التصديق على بعض الأوراق المتعلقة بتصريح زيارتي .

لقد كان هذا المبنى المهيب يبعث الرعب في نفوسنا منذ كنا أطفالاً صغاراً ، بأسواره العالية ونوافذه الضيقة ، وموقعه الحصين في الطرف الشرقي من المدينة ، إضافة إلى سمعته السيئة على مر الزمن .

لقد عرفناه صغاراً باسم "القشلة" كما كان يسميه آباؤنا وأجدادنا ، حيث بدأ رحلته الأولى مقراً للحاكم العثماني ومكانًا لاحتجاز الجنود الذين يساقون إلى الحرب سوقًا ليضحي بهم مجانًا في "القرم" و"البلقان" و"ترعة السويس" وغيرها من ميادين القتال في معارك خاسرة .

ثم صار هذا المبنى مقراً لممثل المندوب السامي البريطاني في المدينة ثم تحول إلى مقر للمتصرف الأردني ومن بعده إلى مقر للحاكم العسكري الإسرائيلي إلى ماقبل شهور خلت .

وهاهو الآن يعود إلى أهله للمرة الأولى وترفرف فوقه راية فلسطينية ويصبح مقراً للمحافظ .

ألصقت نفسي في ذيل طابور طويل من المراجعين ، وأخذت أتأمل هذا المبنى الرهيب . أنظر تارة إلى السلالم المؤدية إلى الأقبية والسراديب تحته ، وتارة إلى الغرفات الضيقة المصطفة على جانبي ساحته الواسعة ، وأتذكر آلاف المناضلين الذين قبعوا في هذه الزنازين الضيقة أيام الاحتلال ، وألوان التعذيب الذي تعرضوا له . منهم من قضى نحبه ليعبد الطريق للآتين من بعده ، ومنهم من يتسلم المسئولية الآن ويفاوض العدو لانتزاع ما تبقى من

أرض الوطن المحتل .

أرسلت نظرى بعيداً إلى حيث يصب هذا الطابور فى قاعة واسعة يتوسطها باب كبير علقت فوقه لافتة بارزة .

"عطوفة المحافظ"

"محمود سليمان"

– محمود سليمان ؟ قلت مندهشًا وبصوت مسموع ، وغلبنى الضحك فما استطعت أن أتمالك نفسى رغم نظرات الناس من حولى واستغرابهم لسبب ضحكى بمفردى . وقلت فى نفسى :

– إذا كان الله يخلق من الشبه أربعين في الوجوه ، فقد يخلق من الشبه فى الأسماء أربعمائة .

وعادت بى الذاكرة إلى أيام طفولتى الأولى ، وإلى محمود سليمان ابن قريتنا وابن صفي والذى يمت لى بصلة قرابة بعيدة .

لقد كان ولداً أنانيًا عدوانيًا يتلذذ بالشكوى من زملائه للمدرسين بسبب وبغير سبب ، ويختلق التهم التى يلصقها بهم حتى يتسبب لهم فى لسعات مؤلمة من عصيّ المدرسين أو المدير . وكان ذلك لايعود عليه إلا بكراهية زملائه وإعراضهم عنه .

وكانت أنانيته أكثر ما تتبدى فى حصة الرياضة البدنية ، عندما يصر على أن يكون قلب الهجوم فى لعبة كرة القدم مع أنه لايحسن هجومًا ولادفاعًا .و فى لعبة كرة الطائرة ، يصر على أن يستلم الإرسال ، مع أنه ما أرسل كرة إلا عرض الشبكة . لقد كان دائمًا يتسبب فى خسارة فريقه .

ويوم شببنا عن الطوق ، ووصلنا إلى مرحلة الدراسة الجامعية ، كان من سوء طالعى أن محمود سليمان كان الوحيد من أبناء قريتنا الذى ساقه الحظ ليكون زميلى فى نفس الجامعة وفى نفس الكلية .

كانت أيام دراستنا أيام فورات ثورية ، ننخرط فيها نحن الطلبة بكل ما أوتينا من حماس ، ولانجد مجالاً نفرغ فيه هذه الشحنات الثورية المتصادمة إلا فى المعركة السنوية لانتخابات اتحاد الطلبة فى سنواتى الأربع التى أمضيتها فى الجامعة ، تعاقب على اتحادنا أربع هيئات إدارية ، كل واحدة تصطبغ بلون سياسى مختلف عن أختها . وكانت وجوه أعضاء الهيئة الإدارية التسع تتغير جميعها مع كل انتخابات إلا وجهًا واحدًا حافظ على مقعده فى الهيئات الأربع ، وجه محمود سليمان .

لقد كنا نسميه "الجوكر" . فإن له قدرة عجيبة على الانحياز لكل تيار صاعد والانسلاخ عن كل تيار يأفل نجمه ، مثل قدرة "الجوكر" على الاصطفاف مع أى لون من الأوراق فى لعبة "الهاند" أو "الكن كان" .

وعندما كان يحدث أن تشتعل مظاهرة طلابية فى إحدى المناسبات الوطنية ، فإن ذلك هو يوم محمود سليمان المشهود . لاتبصره إلا وقد اعتلى فوق كتفى أحد زملائه الغلاظ الشداد ، وأطلق شدقيه بعالى الهتاف حتى يبح صوته .

وعندما كانت مثل هذه المظاهرات تشعل الحماس فى النفوس وتختتم بحملة تطوعية للانخراط فى العمل الفدائى والالتحاق بقواعد المقاتلين فى الأغوار أو فى جنوب لبنان . كنت تبحث عن محمود السليمان فلا تجد له أثرًا ، وكنا نعجب كيف ينسل فى اللحظة الحاسمة كما تسل الشعرة من العجين ، ويتسرب من بيننا فلا نشعر به .

كم مرة حاولنا أن ننصب له كمينًا فنتصيده فى مثل هذا الموقف لنتندر عليه ، لكنه كان يفلت فى كل مرة من كمائننا .

مضت سنوات تزيد على العشرين منذ أن افترقت عن صاحبى محمود السليمان مارأيته فيها قط ، لكن مافاتنى مناسبة أعود فيها من غربتى

وعملى فى الخارج إلا وسألت فيها عنه .

قيل لى فى أول عهد فراقنا : إنه تزوج ابنة مليونير وأنه يحلم بالثراء عندما يحين اليوم الموعود ، لكنه فى صراع دائم مع صهره الذى يلح على ابنته لتتنازل عن نصيبها من الميراث لإخوتها الذكور ، وصاحبنا يقف لها بالمرصاد ويهددها بالطلاق إن فعلت ذلك .

لكن القدر يعاند صاحبى ، فقد طال انتظاره ، والأعمار بيد الله ، وصهره الذى ذرف على التسعين لايزال إلى يومنا هذا يتمتع بالصحة التامة .

وسمعت فى مناسبات أخرى نتفًا من أخبار مشاريعه الكثيرة الفاشلة محاولاً أن يقلد صهره الثرى وغيره من رجال الأعمال ، لكنه لايملك رأس المال أو الخبرة الكافية ، فيتورط فى مشروعات وهمية وتتضاعف ديونه مع كل مشروع جديد .

لكنه مع ذلك مانسى يومًا بذرة الزعامة المغروسة فى أعماقه .

ما إن يسمع بانتخابات لمجلس الحى الذى يسكنه أو لرابطة أبناء القرية فى الخارج ، إلا وجدته مرتديًا بدلته الأنيقة السوداء ، منطلقًا فى حملته الانتخابية بحماسه المعهود أيام الشباب ، لكن النتائج وحدها هى التى تختلف هذه الأيام . فما عاد يفوز فى أى انتخابات يرشح نفسه لها ، لكن ذلك لايثنيه عن تكرار المحاولة سنويًا ليحصد فى كل مرة أصواتًا أقل من أصواته فى السنة السابقة .

ويوم جاء اتفاق "أوسلو "وعادت جموع المقاتلين السابقين لتكون قوات الشرطة العائدة إلى أرض الوطن ، وتدافع آخرون بحثًا عن موطئ قدم يمكنهم من الانخراط فى الصفوف العائدة ، بالوقوف على أعتاب صديق قديم ، أو بادعاء تاريخ نضالى مزعوم .

يومها وجد محمود السليمان فرصته للنجاة بجلده والفرار من ديونه

المتراكمة ، ركب الموجة ، وتعلق ببعض ذوى النفوذ ، وأعدّ بزته العسكرية، ولم ينس أن يرصع كتفيها برتبة رفيعة ، وعاد مع العائدين وانقطعت أخباره عني .

مع اشتداد حرارة الشمس وطول الطابور منيت نفسي منذ البداية قائلاً:

ـ لو كان المحافظ هو قريبي محمود السليمان ، كنت سأرسل له ورقة أو إشارة مع عسكرى ، فيخرج بنفسه لاستقبالى واصطحابى إلى مكتبه ، أو يرسل شرطيًا لدعوتي للدخول فوراً دون الانتظار فى هذا الطابور .

أفقت من رحلتي مع الذكريات على صوت باب مكتب المحافظ ينفتح وينغلق ، وهذا يعنى أننى قد صرت قريبًا من الباب .

وجاء دورى ، وفتح الحاجب الباب ، وخطوت داخلاً .

كان محمود سليمان ابن قريتنا بلحمه وشحمه يجلس على كرسى المحافظ حييته بالسلام ووضعت أمامه أوراقى ، فوقعها ودفعها إلىّ دون أن يرفع رأسه عن أوراق يقلبها بيده .

ماسمعت رده على تحيتى ، ومضيت لاأدرى هل نسى محمود سليمان اسمى ورسمى ، أم تجاهلنى خشية أن أنسى الرتب والألقاب إن كلمنى فأبادره بالتحية المعهودة

ـ أهلاً بالجوكر

الموت فى الطريق

رغم ما للهاتف من مزايا تُقرب البعيد وتختصر المسافات ، إلا أن له مثالبًا وعيوبًا عديدة ، لعل أبرزها فى نظر الأستاذ خالد ، أنه يضعف الهمة ويزين لصاحبه العجز والتواكل . وإلا فكيف تفسر أن يستسيغ الناس المعايدة على بعضهم عبر الهاتف وهم يسكنون فى نفس المدينة . فتسمعه يحدث من حوله قائلاً :

– رحم الله زمانًا ماكان يفرغ فيه أحدنا من صلاة العيد حتى يمر على بيوت ذويه وأصحابه بيتًا بيتًا بكل الهمة والنشاط ، ولو كانت فى أقاصى المدينة .

كيف صار أحدنا يستمرئ أن يتكئ على جنبه بجوار الهاتف فى حجرة داخل منزله ويثرثر مع أصحابه تباعًا كلمات مكررة لاتحمل دفئًا ولاشوقًا كالمه [illegible] لد أن يلقى حملاً عن ظهره ، أو يسبق غيره إلى تسجيل موقف ثم يُسمى ذلك معايدة .

رغم هذا الإحساس بالقصور الذى يراود الأستاذ خالد فى كل عيد إلا أنه لايستطيع وقف عجلة الدنيا التى تغيرت ، إنه بصعوبة بالغة يستطيع أن يوقف نفسه وحدها عن التغيير ، وقد حاول ذلك وفعلها ذات عيد منذ عدة سنوات .

جرب أن يمر على أصحابه واحداً واحداً سيراً على الأقدام ما أمكنه ذلك ، وراكبًا لمن بعد مزاره . فماذا كانت النتيجة ؟

وجد أكثرهم نيامًا لم يألفوا اليقظة بعد وقد اعتادوا السهر حتى الفجر فى ليالى رمضان المنصرمة .. ومن لم يجده نائمًا وجده يستعد لاصطحاب

أطفاله إلى مدينة الألعاب أو لإيصال زوجته إلى بيت أهلها . ومن ندر وحظيت باستقباله لك فإنه ينشغل عنك مرغمًا بين كل كلمة ترحيب وأخرى في ردوده على سيل من المكالمات الهاتفية المهنئة بالعيد . وتجد نفسك رغم الترحاب الظاهر ضيفًا ثقيلاً وتطالع عيني مضيفك ترمقانك بإشفاق وكأنما تقولان :

– ماالذي حملك على هذه المشقة أما كان في مقدورك أن تفعل مثل الآخرين الذين تستمع إلى مكالماتهم تباعًا وأنت تهز رأسك .

ويردد الأستاذ خالد :

لقد تغيرت الدنيا ، ولابد لي أن أفعل ما يفعل الآخرون .

قلب مفكرته بحثًا عن أرقام هواتف أصحابه واحداً واحداً وعيّد عليهم بالطريقة العصرية عبر الهاتف . لقد وصل إلى حرف العين ، إلى اسم صديقه عبد القادر البشري ، زميله لسنوات ثلاث في نفس المدرسة قبل أن يُنقلا كل إلى مدرسة جديدة ، حيث صارا يلتقيان لماما ، إما في الحرم بعد صلاة العشاء أو لقاء عابرًا بين الفينة والفينة .

رغم أن صديقي كان قد ذرف على الخمسين ، إلا أنه كان يتمتع بحيوية ونشاط الشباب إلى جانب لونه الإفريقي الغامق الذي لاتنفذ إلى ملامحه علامات الشيخوخة بسهولة .

آخر مرة التقيته كانت منذ حوالي شهرين أمام البريد المركزي في حي السليمانية ، تعانقنا بحرارة ومودة بالغة . ربت على عاتقي مرات متوالية في تحية سودانية صميمة ، وتبادلنا أطراف الحديث وسألته :

– كيف حال أسامة وأخبار دراسته ؟

وأسامة هو نجله الثاني الذي يدرس في الجامعة ، والذي شاءت الصدف أن يكون أحد مدرسيه صديقًا قديمًا لي وأحد أبناء قريتنا النائية ، حملته

رسالة تحية للدكتور أمجد وتوصية به .

– إنه بخير ودراسته على أحسن حال والدكتور أمجد يوليه عناية خاصة ويبلغك التحية .

طلبت الرقم ورفعت سماعة الهاتف منتظراً سماع صوت صديقى "الزول" عبد القادر ، لكن صوتًا أنثويًا انبعث من الجانب الآخر .

– ألو . . .

– منزل الأستاذ عبد القادر البشرى ؟

– نعم .

وسكت الصوت ، لم يقل شيئًا ، لم يقل هوموجود أو غائب ، ولم يسألنى من أكون .

رابنى الأمر وبرودة الاستقبال ، فاضطررت لمعاودة السؤال .

– هل يمكننى أن أكلم الأستاذ عبد القادر وأعيّد عليه ؟

– تعيّد عليه ؟ أما عرفت ؟ واختنق الصوت بالعبرات وهو يكمل .

– لقد توفى منذ ثلاثة أيام .

صعقتنى المفاجأة ، وسألتها مفجوعًا .

– كيف حدث ذلك ؟ مرض مفاجئ ؟ حادث؟ أى مصيبة حلت على حين غفلة؟

– أنا ابنته ياعمى ، وقد كنت بصحبته . ذهبنا لنؤدى العمرة ليلة السابع والعشرين من رمضان . لم نذهب بسيارتنا تجنبا لشدة الزحام بل بسيارة أجرة ، بعد صلاة التراويح أتممنا أداء العمرة وعدنا لمنزلنا مثلما ذهبنا فى سيارة أجرة .

لم يكن يفصلنا عن مدخل بيتنا سوى عرض الشارع الذى بدا لنا خاليًا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل .

وغصت محدثتى عبر الهاتف بدموعها وتهدج صوتها .

– رحمة الله عليه ، أكملى يا ابنتى وكيف حلت الفاجعة ؟

– كنا نعبر الشارع باتجاه الرصيف المقابل عندما اندفعت نحونا سيارة بسرعة البرق ، لم يبادر بالنجاة بنفسه ، بل دفعنى أمامه باتجاه الرصيف ، وبينما وقعت على وجهى على حافة الرصيف كانت السيارة قد مرت من فوق جسده وولت هاربة ، ولفظ أنفاسه فى الحال .

غلبتنى الدموع وأنا أسمع رواية مصرع صديقى على قارعة الطريق على مرآى من ابنته ، ولملمت بضع كلمات رامية عزيت فيها ابنته المفجوعة التى شهدت مصرع أبيها أمام عينيها ، وأغلقت سماعة الهاتف ، وطيف صديقى عبد القادر البشرى وقد كفن بإحرامه ليبعث يوم القيامة ملبيًا لا يبرح مخيلتى .

الموت المفاجئ

فى صبيحة أيام الجمعة تتوقف الحركة فى مدينة "جدة" ويخلد الناس إلى نوم عميق يستمر إلى قبيل صلاة الجمعة ، بينما هدير مكيفات الهواء يغرق المدينة فى دوى متواصل ألفه ساكنو هذه المدينة ، حتى عاد أطفالها لا يخلدون للنوم إلا على دوى المكيفات على عكس ماهو مألوف من الركون للهدوء فى سواها من المدن .

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما أرسلت الأم التى استيقظت مبكرة ولدها أحمد وشقيقته سناء لشراء بعض الأغراض من البقالة المجاورة.

عاد الولدان بعد قليل ومعهما الأغراض المطلوبة ، لكن الطفل أحمد بدا ممتعضاً وهو يقول لأمه :

– أنا لاأحب جارنا الدكتور أمجد ، إنه متكبر ، لقد ألقيت عليه السلام فى طريق ذهابنا وعودتنا وهو جالس داخل سيارته فلم يرد التحية .

– ربما لم ينتبه لك يا ولدى ولم يسمع تحيتك ، إنه جار طيب ، صديق لأبيك وأولاده وبناته أصدقاؤك وأصدقاء إخوتك .

– كيف لم يسمع ؟ لقد اقتربت منه فى طريق العودة وربتُّ على زجاج نافذة السيارة التى بجواره فلم يلتفت أبداً ولم يعرنا انتباهاً .

– ربتّ على زجاج النافذة ولم يكلمك ؟

ارتابت المرأة فى الأمر ، وجذبت ستارة النافذة المطلة على الشارع وألقت نظرة خاطفة . كان الدكتور أمجد لايزال جالساً خلف مقود سيارته ، أعادت إرخاء الستارة وانصرفت لبعض شؤونها المنزلية ، لكن الوساوس لم تفارق مخيلتها .

- ماالذى يجعله يجلس كل هذا الوقت ساكنًا خلف مقود سيارته ، لم يصعد لشقته ولم يتحرك بسيارته . أتراه يراقب أحداً ؟ أم ينتظر أحداً ؟ ولم تطق المرأة صبراً طويلاً على تهيؤاتها ، لم تنتظر أكثر من بضع دقائق اختلست بعدها نظرة أخرى من وراء الستارة . كان الدكتور أمجد لايزال جالسًا مكانه خلف مقود سيارته بينما خلا الشارع تمامًا من العابرين على أقدامهم أو بسياراتهم .

ازداد ارتياب المرأة فى الأمر ، وخطرت ببالها كل الاحتمالات القريبة والبعيدة ، فرفعت سماعة الهاتف وأيقظت جارتها زوجة الدكتور أمجد من نومها لتخبرها بما سمعت من ولدها أحمد وبما رأت بعينها ، لعلها ترسل أحد أولادها إلى السيارة ليطمئن على والده ويعرف سبب مكوثه الطويل داخل السيارة .

نهضت المرأة بنفسها ، ارتدت عباءتها على عجل ، وهبطت درجات السلم مذعورة ترتجف ، قدماها لايقويان على حملها ، واستحال فضاء جدة الساطع شمسًا محرقة فى ناظريها إلى سماء سوداء تعج بغربان سود تحوم حول رأسها من كل جانب ، وصلت السيارة متهالكة تجر قدميها رعبًا وهولاً وقد هيأت لها مخاوفها صورة المشهد على مرارته . رأت نفسها تقف فى عز الظهيرة أمام جثة زوجها غريبة فى بلد غريب ، لا أم ولا أب ولا أخت ولا أخ تسند رأسها إلى كتفه فى لحظة الرعب والهول التى ستجابهها بعد لحظات وحيدة فريدة ، وبعد حين يتحلق حولها صبية صغار يسألونها عن والدهم وإلى أين ذهب ومتى يعود ؟

مدت يسراها مرتعشة لتفتح باب السيارة بينما استندت بيمناها وسائر بدنها على جسم السيارة متشبثة تحاول منع نفسها من التهالك والسقوط أرضًا .

كان جالسًا خلف مقود السيارة ، متمنطقًا بحزام الأمان كأنما يهيئ نفسه لسفر طويل ، بينما محرك السيارة ومكيفها لم يكفا عن الدوران .

وامتدت يد راعشة تمنى نفسها ببقية من دفء في جبهته ، لكنها كانت باردة كالثلج .

عندما هوت الجبهة مرتطمة بمقود السيارة من أثر الملامسة ، كانت المسكينة تهوى مرتطمة بالأسفلت الساخن بجوار السيارة وقد غابت عما حولها .

لولا صراخ جارتها التى كانت تتابع الموقف من وراء النافذة لظلا على حالهما أمدًا طويلاً ولاحتار الناس فى أمرها .

صحا بعض الجيران على صراخ المرأة وتجمهروا حول السيارة وذهب بعضهم وأحضر طبيبًا من مستشفى قريب . وقرر الطبيب أن الوفاة قد تمت منذ ما يزيد على ساعتين أما المرأة فقد أفاقت من غيبوبتها وحُملت إلى المنزل .

جلسنا بعد صلاة المغرب لتقبل العزاء فى فقيدنا وأفاض الجالسون فى ذكره ، قال صديق له :

ـ لقد سهرنا معه الليلة الماضية على شاطئ البحر إلى مابعد منتصف الليل وكان مرحًا ومسروراً ، لم يبد عليه أي عارض غير طبيعي ، وتحدث عن حلمه في بناء "فيلا" جميلة تحيط بها حديقة غناء .

فرد آخر :

ـ لعلها في الجنة إن شاء الله .

وقال ثان :

ـ لقد صلى معنا الفجر هذا الصباح وسلمت عليه ، كان طبيعيًا بسمته تسبق كلامه .

وقال ثالث :

ـ العجيب فى الأمر كما روت زوجته أنه لم يعد إلى بيته بعد صلاة الفجر ، لقد كان على موعد في قرية مجاورة لينجز بعض العمل فى يوم عطلته ، ولم يعلموا فى بداية الأمر هل ذهب لموعده وعاد أم أنه توفى قبل ذهابه ، لكن أحدهم اتصل بصاحب العمل وسأله إن كان الدكتور قد حضر إليهم صباحًا فأجابهم أنه قد حضر وأنجز عمله وغادرهم فى حوالي الساعة الثامنة .

لقد عاد يقود سيارته عبر شوارع جدة السريعة وتوقف عند إشاراتها الضوئية المتكررة ، وعرّج على منعطفات كثيرة حتى وصل أمام منزله . أوقف سيارته ورفع الكابح اليدوى لكن الأجل لم يمهله ليفك حزام الأمان عن وسطه وعاتقه أو ليطفئ محرك ومكيف سيارته

الفهرس

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب اطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نعنع	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصفة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رؤف أحمد
سيرة عربة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
التدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الفوز للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــد	عبده خال
صعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إيتارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د.علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وطلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرجل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
إلحاح	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب الجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرؤيا	إبراهيم زولى
رويدا باتجاه الأرض	إبراهيم زولى
قصائد حب من العراق	البيساتى وآخرون
بدلاً من الصمت	درويش الأسيوطى
من فصول الزمن الرديء	درويش الأسيوطى
تماماً إلى جوار جثة يوسكو	رشيد الغمرى
كأنها نهاية الأرض	رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة	شريف الشافعي
صلاة المودع	صبرى السيد
دبيـــا تنادينــا	طارق الزياد
تلف	ظبية خميس
البحر، النجوم، العشب في كف واحدة	ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ	عبد العزيز موافى
حواديت لفندى	عصام خميس
سيرة الماء	د . علاء عبد الهادى
رانب الألفة	علوان مهدى الجيلانى
إضاءة فى خيمة الليل	على فريد
نصف حلم فقط	عماد عبد المحسن
عطر النغم الأخضر	عمر غراب
سراب القمر	فاروق خلف
إشارات ضبط المكان	فاروق خلف
أوراق مسافر	فيصل سليم التلاوى
إذهب قبل أن أبكى	د . لطيفة صالح
الغربة والعشق	مجدى رياض
مشاعر همجية	محسن عامر
غربة الصبح	محمد الفارس
وَنَس	محمد الحسينى
ليالى العنفاء	محمد محسن
العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر	نادر ناشد
هذه الروح لى	نادر ناشد

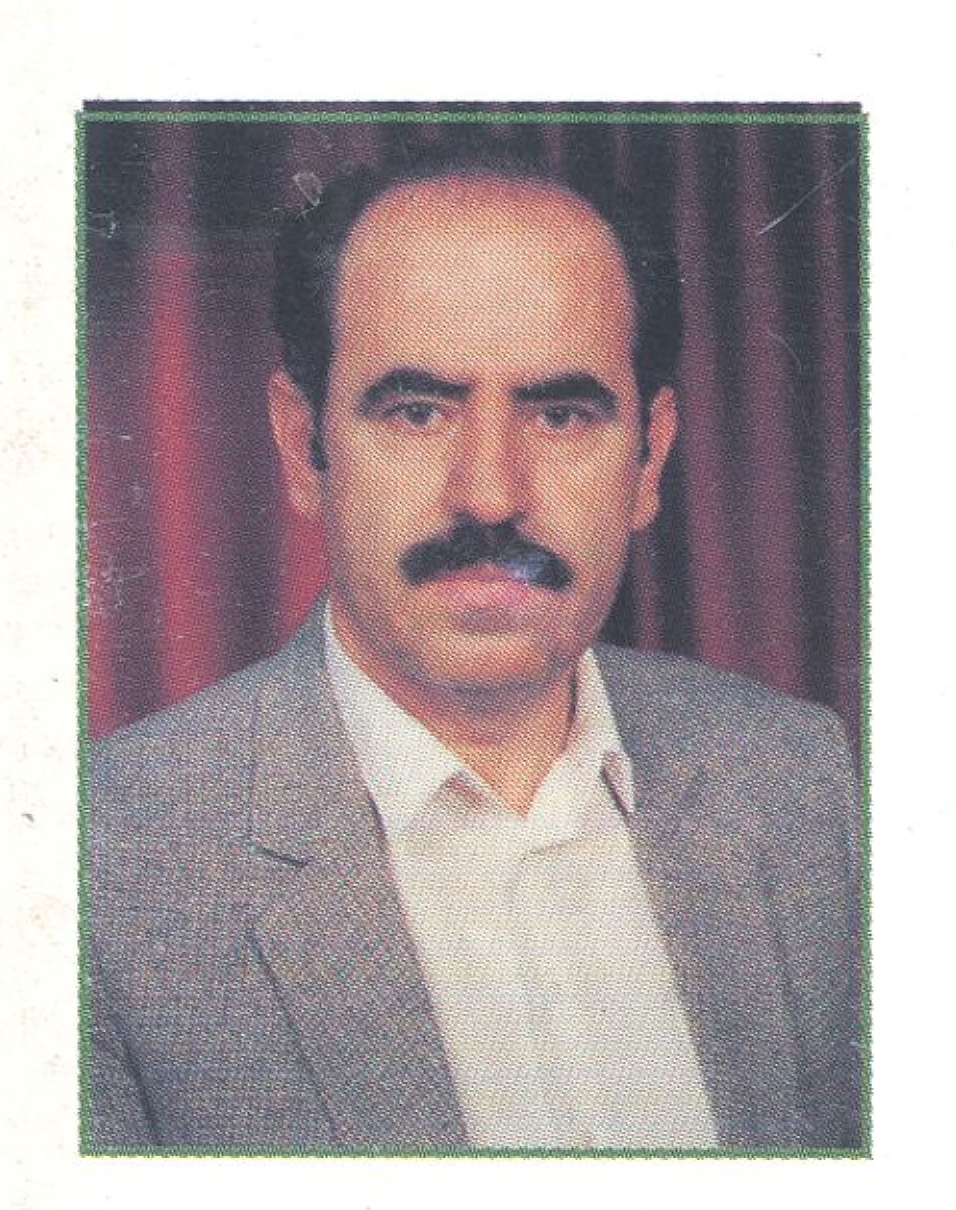
مسرح ..

هذه الليلة الطويلة	د.أحمدصدقى الدجانى
اللعبة الأبدية (مسرحية شعرية)	محمد الفارس
مملكة القرود	محمود عبدالحافظ

دراسات ..

هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية	أحمد الأحمدين
قراءة المعانى فى بحرالتحولات	أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
اللغة والشكل	أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث	جورج طرابيشى
ثقافة البادية	حاتم عبد الهادى
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين	خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا	خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى	خليل إبراهيم حسونة
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية	سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربى فى السعودية	شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع	شوقى عبد الحميد
رحلة الكلمات	د . على فهمى خشيم
بحثاً عن فرعون العربى	د . على فهمى خشيم
أعلام من الأدب العالمى	على عبد الفتاح
هيمنجواى حياته وأعماله الأدبية	د . غبريال وهبة
زمن الرواية . صوت اللحظة الصاخبة	مجدى إبراهيم
فى المرجعية الاجتماعية للمكر والإبداع	محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
أدب الطفل العربى بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديرى
الرواية العربية : رسوم وقراءات	نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية – قومية – دينية – معارف عامة – تراث – أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب – وثائق – النشرة الدولية – دراسات عربية – معلومات – ملفات صحفية موثقة.



يوميات عابر سبيل

تبوح النصوص القصصية بأزمة الإنسان فى علاقاته بالآخر ، وبالمكان .. ويتحول الوجدان إلى انثيال عاطفى يترصد لحظات النفس فى تأزمها وقلقها وإحباطاتها ..

ويقتنص الكاتب - فى وصفية سردية ولغة سهلة بسيطة وتراكيب ذات طابع جمالي متميز - تلك الملامح الذاتية التى تشى بشخصيات لها طابع النمط فى علاقتها مع الآخرين .. وفي مسلكها البشرى العام .

